قصص من التاريخ

٢

فأين الله

الدكتور

محمد حسن الحمصي

دار الرشيد

دمشق - ص.ب ٢٤١٣

قصص من التاريخ

٢

فأين الله

صيحة « عبد الله بن عمر » في جوف الصحراء .

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

محمد حسن الحمصي

الإهداء

إلى الذي تربى في مدرسة التقوى الحقيقية ؛ فنال شهادتها ، وصار علماً من أعلامها ..

إلى الذي رضع لبان الإيمان في مسجد رسول الله (ﷺ)، فكان القدوة المثلى لمن بعده ..

إلى الذي عرف داء الأمم ؛ فقدر من استطاعوا أن ينجوا منه حق التقدير .. ودعا الناس من بعده إلى أن يصونوا أنفسهم من شر هذا الداء الوبيل ..

إلى روح إمام المتقين بعده ..

ورائد الذاكرين الخاشعين ..

عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ..

راجياً أن يغفر لي تقصيري فيما قدمت .. فإنه أهل لكل كمال .

المؤلف

تقديم

بقلم الكاتب الكبير دولة الأستاذ حسن الحكيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فقد طالعت تلك السلسلة القيّمة من القصص الدينية التاريخية التي دبجتها يراعة الاستاذ محمد حسن الحمصي وفيها ينبش تلك الكنوز الثمينة ، والثروات الدفينة، التي يزخر بها تاريخنا العربي والاسلامي. فاعجبت بها ، وهنأته عليها ، راجياً أن تكون نقطة انطلاق لكل مسلم انحرف عن الطريق السويّ ، ونبراساً يهتدى به إلى العلي القدير .

هذا وما كان للاستاذ الحمصي أن يلجأ إلى إحياء مثل هذه القصص لولا ماتفيض به جوانحه من الايمان العميق بالله عز وجل ، ولولا تمسكه بدينه دين الحق، الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، والذي هو نظام كامل للحياة البشرية ، في مختلف ميادينها، أي أنه دين شامل ينتظم جميع مجالات الحياة الانسانية ، ولا يدع ناحية فيها تتسرب اليها قوى الشر الشيطانية ، وهو بشطريه الروحي والاجتماعي ، مايزال أعظم قوة دافعة عرفتها البشرية، على الرغم

بما أصاب المسلمين في هذه الأيام ، من وهن بسبب ابتعادهم عن تعاليم هذا الدين القويم ، تلك التعاليم التي تنطوي على الخير ، وعلى سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية لو عمل بها ؛ كما تنطوي على روح الأخوة الانسانية الشاملة التي لاتجد التفرقة الطائفية والمذهبية وغيرها إلى نفوس العاملين بهذه التعاليم سبيلاً « خصوصاً » وأن هذا الدين الاسلامي يخاطب أساساً العقل فـلا يطالب بتجميد الطاقات الفكرية ، بل يحض على البحث قبل الايمان وعلى التدقيق قبل التصديق .

وإذا لم يكن في هذه الكلمة الموجزة مجـال لتعداد محاسن هذا الدين ، فإني أكتفي بالقول بأنه دين ما أمر بشيء وقال العقل ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شيء وقال العقل ليته أباحه .

وختاماً أهنىء الأستاذ الحمصي مرة أخرى ، وأبتهل إليـه تعالى فأقول : (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنـك رحمة ، إنك أنت الوهاب) .

دمشق الأحد ١٢ ربيـع الأول ١٣٩٣ و ١٥ نيسان ١٩٧٣

حسن الحكيم

رئيس وزراء سابق

للجمهورية العربية السورية

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . وبعد ..

ما أكثر تلك القصص التي يزخر بها تاريخنا العربي والإسلامي .. تلك القصص التي تحمل بين طياتها من الكنوز الرفيعة ، والمعاني السامية ، ما نحن بأمس الحاجة إليه اليوم ! !

ومن المؤسف حقاً أن نرى شبابنا معرضين عنها ، لايكلفون أنفسهم عناء المشقة في نفض غبار الإهمال الذي ران عليها على مدى الأيام ..

ولعل السبب في ذلك هو أن أسلوب عرض تلك القصص لاينسجم تماماً مع ذوق الجيل الحاضر ، الذي كثرت أمامه المغريات ،وتشعبت لديه فنون الحضارة ، كل منها يريد أن يشده إليه بمختلف الوسائل .

وكان أن بقيت كنوز هذه الأمة حبيسة الكتب القديمة التي فقدت الكثير من روائها في نظر أبناء الجيل الحاضر ، فانقطع الاتصال ، وتضاءلت الفائدة ..

ولذلك فقد كانت الحاجة ماسة لإزاحة ركام الماضي عن هذه الثروات الدفينة ، وعرضها بالأسلوب المناسب ، بحيث تشد اليها شبابنا ، وتستقطب اهتمامهم . .

ولا نعني بذلك أن نجتر التاريخ - كما يقولون - بأن نتغنى بالماضي، ونسبح في أجواء الخيال ، نستمتع بأمجاد الأجداد ، وننتشي لأعمال من سلف ..

بل إن أمجاد الماضي ينبغي أن تكون نقطة انطلاق مما كان إلى ما يجب أن يكون ؛ ومما عملوا إلى ما يجب أن نعمل ..

ولا يجوز لمفاخر الأجداد إلا أن تكون قدوة تحتذى ، ونبراساً يهتدى به ، ومشعلاً ينير الطريق أمام مجتمعنا الحاضر ، فيهديه سواء السبيل ..

وكانت هذه السلسلة (قصص من التاريخ) خطوة من الخطوات التي عملت على تلافي ذلك النقص .. لعلها تنجح في ربط الحاضر بالماضي التليد ، فيتحقق لنا المجد كما تحقق لأسلافنا عندما كانوا أبطالاً حقيقيين .. أبطالاً حققوا النصر على أنفسهم وأهوائهم قبل مقارعة العدو ؛ فكانوا بذلك جديرين بأن يخلد التاريخ أسماءهم بأحرف من نور ..

آملين من المولى سبحانه أن يمدنا بالعون ، ويكتب لنا التوفيق . إنه على ما يشاء قدير ..

فأين الله

كانت أشعة الشمس المتوهجة تسطع على شعاب مكة الجرداء ، فتحيلها جمراً لاذعاً لايطاق ... ولكأنما كانت تريد بذلك أن تذكر الإنسان بما كان يلاقيه بلال الحبشي – رضي الله تعالى عنه – من عذاب على تلك الرمال المحرقة ، وهو يصيح من تحت الصخرة ، صيحة الجبابرة : (**أحد ... أحد**) .

وكانت الجنادب تصر من هنا وهناك ... وكأنما النار قد مست جنوبها فآذتها ... فتصايحت وعلا صريرها من كل مكان ... باثة شكواها إلى تلك الأراضي القفر ، التي كانت تنوء تحت عبء العوارض الطبيعية القاسية ، فتفتّتت وهي راسخة ثابتة ، كأنها بحر عميق لا ساحل له ، يدفن في باطنه جور الأيام وظلم الزمان ...

وسكن الناس بعد أن أووا إلى منازلهم اتقاء حر ذلك اليوم ...

وخوت شعاب مكة ... فلا حركة ولا سكون ... كلٌّ قد وجد لنفسه ظلاً يقيل تحته وقت الهاجرة ...

غير أن « عبد الله بن عمر » تأخر في العودة من بعض أعماله خارج مكة ... لذلك فهو ينشـــد الوصول إلى منزله بأسرع وقت ممكن ...

فكان يسير مع صاحبه « عبد الرحمن » بخطا حثيثة ... قد لف كل منهما وجهه بقناع يحميه من لفح الهواء الحار ... ولم يكن يبدو من وجهيهما سوى العيون المترقبة ، التي أثرت فيها الشمس الساطعة ... فضاقت الأحـــداق . . . وانسدلت الجفون ، وتشابكت الأهداب ...

ودلف الرجلان في شعاب مكة ، يقصدان « أم القرى » ... غير أنهما أدركا عجزهما عن متابعة المسير ... فقد أخذ منهما التعب كل مأخذ ... وجف الحلق ... وبدا على محياهما ملامح الإعياء ...

وأخذت العيون تدور في محاجرها ، ذات اليمين وذات اليسار ، باحثة عن مكان مناسب ، تقضي فيه وقت القيلولة ، وتستظل تحته من وهج الشمس التي أثرت في جسميهما ...

إنهما يقلبان النظر هنا وهناك ... بحثاً عن نقطة ماء تروي

ظمأهما ؛ فلقـــد بلغ بهما العطش أوج الشدة ... وغلا الدم في العروق ... ويبست الحلوق ...

والتفت « عبد الله بن عمر » إلى زميله ، يفضي إليه بما دار في خلده من انطباعات حول ما وقع فيه من ظمأ شديد ... وفي كثير من التكلف تحدث إليه قائلاً :

ـ ما أشد حاجتنا إلى شربة ماء ... تروي غليلنـــا .. وتذهب عنا ما ألم بنا من هذا الظمأ المهلك !!

ـ أجل ... والله إني لا أكاد أطيق عليه صبراً ...

وبنبرات اليائس الحزين تابع « عبد الرحمن » يقول :

ـ ولا أدري ... هل ستدركنا العناية الإلهية قبل أن يأخذ منا الهلاك كل مأخذ ؟!

ـ ما أغلى كأس الماء في مثل هذه الحالة التي نحن عليها !!.

ـ إني والله مستعد لأن أشتريه بجميع ما أملك ... فما قيمة المال إذا فقد الإنسان الماء ؟؟ ألم يقل الله تعالى : **« وجعلنا من الماء كل شيء حي »** (١) ؟؟

ـ أجل يا أخي ...

---

(١) سورة « الأنبياء » الآية ـ ٣٠ ـ .

وبهدوء المفكر الواعي تابع «عبد الله» يقول :

– لو أن الإنسان ينظر بعين المتأمل إلى الفضل الإلهي الكبير ، الذي يحيط به من كل جانب ، لأدرك أنه عاجز عن تأدية شكر هذه النعم التي لاتحصى .

وبعد أن صمت برهة استعرض في ذهنه خلالها ، ما أصابه هو وصاحبه من شدة وضنك ، تابع يقول :

– ما أروع هذا الدين الذي قرر من المبادىء ما يصلح لإسعاد المجتمع ، في كل طور من أطواره ، وفي كل حالة من حالاته !!

فلم ينس الإسلام حالة أمثالنا ، الذين هم في أمس الحاجة إلى شربة ماء ؟ فحث المسلمين على سقيا الماء ، وحرم منعه عن المحتاج ... فلقد دخل رجل على رسول الله ﷺ وقال : يا نبي الله ما الشيء الذي لايحل منعه ؟ قال : (الماء)[1] .

(١) روى أبو داود هذا الحديث عن امرأة يقال لها بهيسة ، عن أبيها ، قالت : استأذن أبي النبي صلى الله عليه وسلم فدخل بينه وبين قميصه ، فجعل يقبل ويلتزم ، ثم قال : ما الشيء الذي لايحل منعه ؟ قال : الماء . قال : يا نبي الله ما الشيء الذي لايحل منعه ؟ قال : الملح . قال : يا نبي الله ما الشيء الذي لايحل منعه ؟ قال : أن تفعل الخير خير لك .

وجعل ثواب من يسقي مؤمناً على ظمـــأ أن يسقيه الله عز وجل ، يوم القيامة ، من الرحيق المختوم[1] وأن يباعده من النار[2].

ــ عبد الرحمن : بل إن الإسلام جعل الامتناع عن سقيا الظمآن بمثابة الامتناع عن سقيا رب العباد ... فلقـد وردنا عن رسول الله ﷺ أن الله عز وجل يقول يوم القيامة : (يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقني ، قال : يارب ، وكيف أسقيك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي)[3] .

ــ عبد الله : ولم يكتف الإسلام بأن يوفر للفرد الشيء

---

(١) عن« أبي سعيد »ــرضي الله عنه ــقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عري كساه الله يوم القيامة من حلل الجنة . رواه الترمذي وأبو داود .

(٢) عن« عبد الله بن عمرو»ــ رضي الله عنهما ــقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه من المـــاء حتى يرويه باعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام . رواه الطبراني والحاكم والبيهقي .

(٣) من حديث قدسي طويل رواه مسلم .

الضروري ، ويدفع الناس كلهم (سائر أفراد المجتمع) إلى بذله والتسابق في مجال الإيثار به وقت الحاجة إليه **« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »**[1] بل إن هذا الدين الحنيف سما فوق ذلك كله ، **فجعل حق الاستمتاع بالضروريات ملكاً لكل ذي حياة ، يستوي في ذلك الحيوان والانسان**..وأهاب بالمسلمين جميعاً أن يؤدوا هذا الحق ... ووعدهم بالمثوبة والأجر إن هم أدوا هذا الحق لكل ذي حياة ولو كان حيواناً . . . **وهددهم بالعقوبة ودخول جهنم إن هم عملوا على حرمان ذوي الحياة حقوقهم هذه ولو كان المحروم حيواناً أعجم ..**

فلقد روى الصحابة الكرام أن رسول الله ﷺ أخبر عن أحوال من قبلنا من الأمم فقال :

(بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه الحر ، فوجد بئراً ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقي ، فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له .

---

(١) « سورة الحشر » : الآية ـ ٩ ـ .

قالوا : يارسول الله إن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل كبد رطبة أجر)[1] .

كما روي أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش[2] الأرض)[3] .

● ● ●

وبينما كان «عبد الله» يتكلم ، وصاحبه يستمع إليه ، ويؤكد كلامه ، ويثني على هذا الدين الذي أنزله الله لإسعاد الناس والأخذ بأيديهم إلى خيري الدنيا والآخرة ، داعماً رأيه هذا بالاستشهاد بقوله تعالى « **ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة** »[4] ، لحظت العيون المتطلعة سواداً بعيداً ، وسط الصحراء التي أقفرت من كل ذي حياة حتى لم يُرَ فيها عابر سبيل ...

وأدركت النفوس المتلهفة أنها ربما وجدت بغيتها عند ذلك السواد ، فإذا الرجلان يتجهان تلقائياً ، إلى حيث سبق البصر ..

---

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم وغيرهم .

(٢) خشاش الأرض : هوامها وحشراتها .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) « سورة البقرة » : الآية - ٢٠١ - .

وكأنما كان ذلك آلة مغناطيسية اجتذبتهما إليها على غير شعور منهما ...

وما إن اقتربا من ذاك السواد حتى عرفا أن أملهما قد تحقق.. إنهما أمام راعي غنم ، قد أخذته سنة من النوم في كهف صغير ، بعد أن عهد بحراسة قطيعه إلى كلبه الذي قبع قريباً منه ، باسطاً ذراعيه ، يحفظ العهد ويؤدي الأمانة على أفضل مايكون الأداء . .

ولم يكد الركب يقترب ، حتى علا نباح الكلب ليوقظ صاحبه النائم ...

وهب الشاب « مجاهد » من سباته يرحب بضيفيه الكريمين . .. بعد أن رد التحية بأحسن منها .. وأجلسهما في مكانه تحت الظل الذي لايتسع لأكثر من اثنين .

وأدرك من فوره آثار العطش التي بدت على محيا ضيفيه ، فأسرع يحلب لهما من غنمه حتى ملأ الوعاء لبناً سائغاً ..

وعاد إليهما يقول :

ـ ها كما شربة من اللبن ... عساها تخفف عنكما ما أنتما فيه . .. فتناولها عبد الله ، وقدمها لصاحبه ، وأصر عليه أن يشرب قبله . . فامتثل الأخير وشرب ثم تناول عبد الله الوعاء وأخذ يعب منه حتى أحس بالارتواء . .

وبعد أن حمد الله على ما أنعم به عليهما من شربة كانت أغلى عليهما من ملك الدنيا وما فيها ، ذهب يفكر في نعم الله تعالى على الإنسان .. وعلى وجه الخصوص نعمة الماء البارد .. تلك النعمة التي لايقيم الإنسان لها وزناً ، ومع ذلك فهي من النعم التي سيُسأل عنها يوم القيامة ، هل أدى شكرها ؟ ؟ وهذا رأي الكثير من صحابة رسول الله ﷺ في قوله تعالى « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم »[1] إذ أنهم رأوا أن المـــاء البارد من النعيم الذي سيسأل عنه العبد يوم القيامة[2] !!

ثم أعاد الإناء إلى الراعي وهو يقول :

ـ شكراً لك يا أخا العرب ..

---

(١) « سورة التكاثر » : الآية ـ ٨ ـ .

(٢) عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال النبي (صلى الله عليه وسلم) (إن أول ما يسأل عنه ـ يعني يوم القيامة ـ العبد من النعيم أن يقال له : ألم نصحّ لك بدنك ونروك من الماء البارد ؟

رواه الترمذي وابن حبان

وعن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لما نزلت « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » قالوا : يارسول الله ، لأي نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال : إن ذلك سيكون .

رواه أبو حاتم والترمذي وابن ماجه

لقد حلبت من غنمك هذا أضعاف ما يستطيع أن يشربه رجلان !!
فهلا أخذت فضلة هذا الإناء فشربتها ؟؟

غير أن الرجل أخذ الوعاء ووضعه جانباً ..

وانتظر «عبد الله» قليلاً قبل أن يحث «مجاهداً» على شرب ماتبقى من اللبن .. ولكن شدة الحر دفعته إلى أن يلح عليه بشربها .. وما لبث أن وجد نفسه يخاطبه بقوله :

– هلا شربت ماتبقى في الإناء قبل أن تفسده شدة الحر ؟

– لا .. لا أريد .

هكذا أجاب الراعي «عبدَ الله بن عمر» ثم تابع يقول :

– لا أستطيع الشرب ..

– ولِمَ يا أخي ؟؟ إنك إذا تركتها فان الفساد سيسارع اليها !!

ووجد « مجاهد » نفسه مضطراً لأن يصارحه بالحقيقة التي كان يضن أن يفضي بها ، فقال :

– إنني صائم ..

– صائم ؟؟

– أجل .. إني صائم ..

وانصرف ذهن «عبد الله» إلى التفكير في سبب هذا الصوم .. يبحث

عن موجبات الصوم أمراً وراء آخر ، فلم يجد شيئاً منها ينطبق على ذلك اليوم .. فالوقت ليس رمضان .. كما أنه ليس من الأشهر الفاضلة التي يستحب فيها الصوم .. وليس ذاك اليوم أيضاً من الأيام التي يُندب فيها الصيام !!

ولما لم يجد سبباً عاماً موجباً للصيام ، ذهب يبحث عن سبب خاص بهذا الراعي ، فالتفت إليه يسأله بقوله :

– هل نذرت لله نذراً فأنت توفيه ؟

– مجاهد : لا ..

– عبد الله : هل أقسمت يميناً فأنت تبرّ بقسمك ؟

– مجاهد : لا ..

– عبد الله : إذاً فليس هناك من سبب موجب لأن تصوم في هذا اليوم ؟

– مجاهد : لا ..

– عبد الله : أو تصوم في حر هذا اليوم دونما سبب موجب ؟

وما كاد عبد الله ينهي كلماته هذه حتى انتفض الراعي، وقد بدت على قسمات وجهه أمارات الاستغراب الشديد ، وقال :

– وأنى لرجل مسلم عاقل مثلك أن يقول هذا ؟! ..
أولست تؤمن بالله واليوم الآخر ؟! ..

ـ بلى .. ولكن ماشأن إيماني هذا بصيامك ، والوقت ليس رمضان، والله لم يفرض عليك هذا الصيام ؟!

وبجدّة ممزوجة بالإشفاق، أشار الراعي إلى خوفه من (يوم الحشر) فقال :

ـ يارجل ... « إنـني أصوم في حر هذا اليوم اتقاء حر ذلك اليوم » ! ! .

● ● ●

وأعجب عبد اللـه بذاك الراعي .. بتلك التقوى النادرة التي يتحلى بها إنسان يراه ماثلاً أمام عينيه .

وذهب يردد في نفسه :

« أصوم في حر هذا اليوم اتقاء حر ذلك اليوم» ! ! »

ثم تابـع نجواه الفردية بقوله :

ـ ما أقسى حرارة ذلك اليوم .. ذاك اليوم الذي يحشر فيه الخلائق كلهم ، حفاة عراة ، جياعاً عطاشاً ، غرلاً [١] .. لينال كل إنسان جزاء ما اقترفت يداه !!

---

(١) الغرل : جمع أغرل وهو الأقلف الذي لم يختن

ألم يقف رسول الله ، الصادق الأمين ، خطيباً على المنبر يقول :

(ياأيها الناس إنكم محشورون الى الله حفـاة عراة غرلاً : «كما بدأناأول خلق نعيده ، وعداً علينا ، إنا كنا فاعلين »)[١] .

ـ ما أشد غمة ذلك اليوم الذي يشتد فيه الموقف على الناس، فيغمرهم العرق حتى يبلغ الآذان !!

لقد سمعت رسول الله ﷺ يذكر قوله تعالى : **« يوم يقوم الناس لرب العالمين [٢] »** ثم يقول : (يقوم أحـدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه)[٣] .

وكيف لايغمرهم العرق إلى أنصاف آذانهم وقد ورد عـن رسول الله ﷺ أن الشمس تدنو من الخلق يوم القيامة حتى تكون منهم كمقدار ميل ؟!

قال رسول الله ﷺ : (تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميـــل [٤] ، فتكون الناس على قدر

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) « سورة المطففين » : الآية ـ ٦ ـ

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) قال راوي الحديث سليم بن عامر : والله ما أدري مايعني بالميل مسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين .

أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون الى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً)[1] وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه .

ـ ما أعظم هول يوم القيامة . . ذاك اليوم الذي تذهل فيه المرضعة عما أرضعت !!

ألم يناد المولى سبحانه الناس كلهم ويحذرهم من هول ذلك اليوم ؟

قال تعالى : **يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ،وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وماهم بسكارى،ولكن عذاب الله شديد . »**[2] .

ـ ما أشد الفزع في ذاك اليوم الذي يفر فيـــه الأخ من أخيه وأمه وأبيه !!

إنها الصاخة التي قال عنها المولى سبحانه : **« يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »**[3] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) « سورة الحج » : الآية ـ ١ و ٢ ـ .

(٣) « سورة عبس » : الآية ٣٤ ـ ٣٦ .

ـ في ذاك اليوم لن يبقى مع الإنسان إلا عمله ..

ألم يروِ أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال :

(يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ؛ فيرجع اثنان ويبقى واحد . يرجع أهله وماله ، ويبقى عمله)[1] ؟

ـ غداً سنقف جميعاً بين يدي رب العالمين وستجد كل نفس ما عملت محضراً ..

ألم يخبرنا المولى عز وجل عن هذا اليوم بقوله جل من قائل :

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء ، تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً »[2] .

ـ في ذاك اليوم لن تنفع صداقة أو أخوة أو محبة .. الا أخوة في الله ومحبة لله ..

إنها أخوة المتحابين في الله التي تجعلهم في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله ..

ألم يقل رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى يقول يوم القيامة

---

(١) متفق عليه .

(٢) « سورة آل عمران » : الآية ـ ٣٠ ـ .

أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لاظل إلا ظلي)[1].

ثم سرّح «عبد الله» خياله ملياً .. يفكر في أهوال يوم البعث والنشور .. وما أعده الله ليوم الحساب ، يوم الدين .

غير أنه لم يلبث أن عاد إلى واقعه الذي يراه أمام عينيه... إلى هذا الفتى « مجاهد » الذي بلغ قمة من قمم التقوى ، وذروة من ذرا التفكير الإسلامي السديد .. ذاك التفكير الذي لايكتفي منه بأن يعمل لدنياه أو لأخراه فقط ، بل يصيب من هذه ومن تلك كلٍّ بقدر الحاجة .. شعاره في ذلك القول المأثور عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) .

وها هو ذا يرى هذا الراعي لايقبع في زاوية ما يتبتّل ويعبد الله ، بعيداً عن الناس .. بل إنه يعمل في أمور دنياه .. فقام بواجبه في رعي الغنم ، على أحسن حال . . ويعمل في أمور آخرته ، فاستعد ليوم الحساب خير استعداد ؛ فقدم من أعمال الطاعة أكثر مما في مقدور الإنسان .. مع أنه **« لايكلف الله نفساً إلا وسعها »**[2] .

---

(١) رواه « مسلم » عن « أبي هريرة » .
(٢) « سورة البقرة » : الآية - ٢٨٦ -

وأطرق « عبد الله » يناجي نفسه وهو يقول :

– ما أروع هذا الراعي المسلم ، الذي تفاعل مع الدين الحنيف وأصبح يرقب يوم المعاد إلى الله . . يراقب الله في أموره كلها يخشى الله .. يخاف تقصير نفسه فيما لايدركه . . ولذلك فهو قد سارع إلى تدارك الخطر .. واتقاء حر ذلك اليوم !

– ما أروع الإسلام .. ذاك الدين الذي صنع المعجزات .. فجعل من هذا الراعي إنساناً مؤمناً تقياً . . لايعبأ بشدة الحر ولايعبأ بالعطش الذي لايطاق في مثل هذا اليوم القائظ .. لايلتفت إلى شيء من ملاذ الدنيا ، حتى يفوز برضى الله !!

وفي خلال تلك الإطراقة انسحب « مجاهد » ليتفقد شؤون غنمه ... فاغتنم « عبد الله » فرصة غيابه فأنشأ يحدث صاحبه « عبد الرحمن » عما يجول في نفسه فقال :

– إنها – والله – ثمرة من ثمار المراقبة لله ... ولا يمكن للانسان أن يجني شيئاً من تلك الثمار إلا إذا كان مؤمناً إيماناً حقيقياً . قد تنور قلبه بذكر الله ... وحيي بالله ... حتى تحقق فيه معنى الإحسان : (**أن تعبد الله كأنك تراه**)[1] .

---

(١) من حديث رواه البخاري ومسلم

قال رسول الله ﷺ : (اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] .

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت)[2] .

ـ صحيح والله ...

هكذا قال « عبد الرحمن » ... ثم تابع حديثه ـ مشيراً إلى الراعي مجاهد ـ يقول :

ـ إنه لرجل كيّس ... فهم الإسلام على حقيقته ، فحاسب نفسه ، وعمل لما بعد الموت ...

فإني قد سمعت أن رسول الله ﷺ قال :

(الكيّس[3] من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت . والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)[4] .

فأجابه ابن عمر بقوله :

ـ كثيراً ما كان والدي ـ رحمه الله ـ يردد قوله :

---

(١) « إحياء علوم الدين » : ج ٤ : الصفحة ٣٨٤ .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » ، وأبو نعيم في « الحلية » .

(٣) الكيس : العاقل ـ دان نفسه : حاسبها .

(٤) رواه الترمذي .

(حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيؤوا للعرض الأكبر)[1] .

ـ حقاً ... والله إني لأرى أن هذا الراعي قد وعى كلام والدك ، أمير المؤمنين ، فطبقه وعمل به على خير ما يمكن ...

ولكأني به ... عمل بما أفضى به أمير المؤمنين ـ رحمه الله ـ إلى أبي موسى الأشعري حين كتب إليه ينصحه بقوله :

(حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة)[2] .

ـ ولعمري ... كأنما كان عمر ـ عليه أفضل الرحمات ـ يرى أن الديانات السماوية كلها تدعو الانسان إلى أن يحاسب نفسه ...

ولذلك فهو عندما سأل « كعب الأحبار » ذات يوم بقوله : كيف تجدها في التوراة ؟ فأجابه : ويل لديان الأرض من ديان السماء .. علاه بالدرة وقال له : إلا من حاسب نفسه .. فقال كعب : يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التواراة ، مابينهما حرف ، إلا من حاسب نفسه[3] .

---

(١) « إحياء علوم الدين » : الجزء الرابع : الصفحة ٣٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٨٤ .

(٣) « إحياء علوم الدين » الجزء الرابع : الصفحة — ٣٨٤ —

وصمت «عبد الله» هنيهة يفكر في أمر غلب على ذهنه ..

ولما استبطأ زميله منه الجواب بادره بالسؤال يقول :

— مالك يابن عمر ؟؟ هل من أمر يزعجك ؟؟

— لا ياأخي .. ولكني أفكر في أمر هذا الفتى ..

— وما الذي استرعى انتباهك المفاجىء هذا ؟؟

— أريد أن أعرف .. **هل هو قد عرف حقيقة التقوى ؟**

هل هو يعبد الله كأنه يراه .. يراقبه في سره وإعلانه .. يخافه في أموره كلها : صغيرها وكبيرها ؟؟

أم إنه رجل ماعرف من التقوى إلا ظاهرها .. التعبد .. والصيام .. وما سوى ذلك من أعمال العبادات التي لاتكلفة درهماً ولاديناراً .. فإذا ماعومل بالأبيض والأصفر ، بالدرهم والدينار ، فانه ينسى التقوى ، وينسى الصيام ، وينسى الصلاة .. وكأن الله عز وجل لم يقل :

« إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »[1]

أو كأن النبي ﷺ لم يقل :

(١) « سورة العنكبوت » : الآية ـ ٤٥ ـ

(من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً)

ـ حق ماتقول يا ابن عمر ..

إننا والله لاندري .. هل هو على حقيقة التقوى ، أو أن الإيمان لايزال بعيداً عن قلبه ؟؟

ـ أما إنه ـ والله ـ لايكشف حقيقة التقوى كثرة صلاة أو صيام .. ولكن الذي يكشف حقيقة الانسان هو المعاملة بالأموال أو السفر في طريق شاقة ..

ألم تستمع إلى والدي ـ رحمه الله ـ حين وقف في الناس خطيباً يبين لهم الصفات التي ينبغي عليهم أن يعتمدوها .. بحيث لاتغرّهم صلاة أو صيام .

ـ وكيف كان ذلك يا ابن أمير المؤمنين ؟

زدني .. زادك الله من خيري الدنيا والآخرة .

ـ لقد وقف والدي يوماً يعظ الناس فقال :

« لاتنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته ، ولكن انظروا مَن إذا حدث صدق ، وإذا اؤتمن أدى ، وإذا أشفي ـ أي هم بالمعصية ـ ورع »[1] .

ثم أردف ابن عمر يقول :

---

(١) « عبقرية عمر » للعقاد : ص ٨٥ .

وهكذا يا أخي ... لانستطيع أن نحكم على حسن إسلام هذا الراعي إلا من خلال الاختبار العملي ...

– وما يهمك من معرفة حال هذا الرجل ؟؟

إنه راعٍ في جوف الصحراء ... فإن كان تقياً فتقواه لنفسه ... وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه !!

– أرأيت – يا عبد الرحمن – كيف تتعجل في الحكم ، وتنظر إلى الأمور نظرة سطحية غير متعمقة ؟؟

– وماذا تريد من ذلك ؟

– أريد أن أعرف ما إذا كانت التربية الإيمانية التي ربى رسول الله ﷺ عليها أصحابه الكرام قد نفذت إلى جوف الصحراء ، أو أنها لم تصل بعد إلى المستوى المطلوب ؟؟

أريد أن أعرف ما إذا كان إسلام هؤلاء المسلمين قد داخل أعماق أعماق نفوسهم !!

أريد أن أعرف ما إذا كان الاسلام قد فُهم على حقيقته لدى جميع المسلمين أو أن فهمهم له كان ظاهرياً !!

– وما الذي يهمك من هذا ؟؟

أعتقد أنه لا فائدة ترجى من وراء استقصائك لهذه الأمور !!

- ألم أقل لك – ياصاحبي – إنك تتعجل ولاتتأنى ؟

وكيف لايعنيني أمر المسلمين والنبي ﷺ يقول :

(من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) .

كيف لايعنيني معرفة حقيقة تقوى هذا الراعي ، وهو دليل أستطيع به أن استبشر بالخير للمسلمين ، وأطمئن بالنصر المؤزر لهم ؟

– وكيف يكون ذلك يا « عبدالله » ؟

هل لهذا البدوي ، في جوف الصحراء ، يد في نصر جيوش المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ؟

– لكأني بك – ياأخي – لم تقرأ قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[1]

فجعل الله النصر للمسلمين مشروطاً بنصرهم لله ولأوامر الله وبالامتثال لكتابه الكريم ، في الأمور كلها : صغيرها وكبيرها

ولكأني بك – ياصاحبي – لم تقرأ أيضاً قوله تعالى :

« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »[2]

---

(١) « سورة محمد » : الآية – ٧ –

(٢) « سورة الروم » : الآية – ٤٧ –

فقطع المولى – عز وجل – على نفسه العهد بنصر المؤمنين .. المؤمنين الحقيقيين ، وليس مدّعي الإيمان .. المؤمنين الحقيقيين الذين يراقبون الله في أمورهم كلها ، فلا يتجرؤون على معصية !!

– صحيح والله .. وما انتصر صحابة رسول الله ﷺ إلا لأنهم مؤمنون حقيقيون .

أعدوا لعدوهم سلاحين اثنين ، في حين أعد لهم عدوهم سلاحاً واحداً .. أعدوا لعدوهم سلاح القتال من سيف ورمح ودروع وخيل وما إلى ذلك مما يعده العدو لعدوه ..

كما أعدوا له سلاحاً آخر .. سلاح الايمان القلبي الصادق ..

– وبتعاون هذين السلاحين كان النصر يتم لهم دائماً على عدوهم الذي يفوقهم بالعدد والعدة .. مصداقاً لقوله تعالى :

« إِن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وان يكن منكم مئة يغلبوا الفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون »[1] .

وإذا ما قلبت صفحات التاريخ فإنك واجد فيها – لا محالة – خير دليل على صدق ما أقول .

---

(١) « سورة الانفال » : الآية – ٦٥ –

— أجل يا عبد الله ...

منذ معركة بدر ... إلى فتح مكة ... إلى القادسية واليرموك ... كان المشركون أضعاف المسلمين بالعدد والعدة والعتاد ... ومع ذلك فقد كانت راية الاسلام خفاقة في كل مجال !! .

— لا تنس أن السر في تلك الانتصارات الساحقة هو أن المسلمين كانوا مسلمين حقيقيين ... مسلمين متقين لله ... شعارهم دائماً قول الشاعر :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل
خلوت ، ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ماتخفيه عنه يغيب

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غداً للناظرين قريب

وفيما كان ابن عمر يتم روايته للأبيات،سمع الرجلان وقع أقدام الراعي،وقد عاد إليها بعد أن انتهى من رعاية شؤون غنمه ... فقال عبد الله وقد غضّ من صوته :

ـ صه ... ها هو ذا قد عاد ... أريد أن أمتحن هذا الانسان لأعرف حقيقة الدافع الذي دفع به إلى الصوم في هـــذا اليوم القائظ ... فإن كان الاسلام الحقيقي فإنه سيمنعه من الوقوع في المحرمات مهما صغر أمرها ...

وما إن وصل الراعي حتى هشّ بضيفيه ، وبشّ لهما ، وقال :

ـ يا مرحبا بالضيوف ...

خذا هذا الثوب واضطجعا عليه ... لعلكما تجدان شيئاً من الراحة في هذا الجو المحموم ...

فأجاب عبد الله :

ـ جزاك الله عنا خيراً يا أخا العرب ...

ولكنا بمسيس الحاجة إلى طعام ...

لقد مضى علينا في سفرنا هذا ثلاثة أيام لم نذق خلالها طعاماً ...

وبدت الحيرة على وجه « مجاهد » .. وتلفت يمنـــة ويسرة وهو لايجد بين يديه مايسد رمق هذين الضيفين الجائعين ..

وذهب يفرك يداً بيد ..

ولكن الجواب الذي جمدت شفتاه عن الإفصاح عنـــه ، بدا جلياً واضحاً على قسمات وجهه المقطب ، بحيث يستطيع أن يقرأه كل من ينظر اليه .. فيعرف أن لسان حاله يقول :

لا يوجد لدي ما أقدمه لكما ... ويا ليتني أملك زوادة ... إذن لآثرتكما بها ، ورضيت مختاراً أن أبيت على الطوى !!

غير أن ابن عمر لم يقتنع بهذا الجواب الذي عبرت عنه جميع حواس هذا الراعي . . فأرشد مضيفه إلى مصدر للطعام قريب ، فقال :

– اذبح لنا شاة وهيىء لنا منها طعاماً ...

فارتبك الأعرابي ، حتى إن علامات الهم والغم بدت على وجهه . .

لقد وقع فريسة الصراع بين عاطفتين جامحتين ، كلٌّ منهما تناقض الأخرى ...

فهو لا يرتضي لنفسه أن يرحل ضيفه الجائع دون أن يقدم له حقه من القرى ...

وهو في الوقت نفسه لا يريد أن يقدم على ذبح إحدى الشياه ، لأنه لا يملك الحق في ذلك ... إذ أن الغنم ليست ملكاً له بل هي ملك لسيده !!

وما إن لحظ ابن عمر آثار هذا الصراع النفسي العنيف ، الذي أوقفه عن كل تصرف ، وجمد لسانه عن كل جواب ، حتى أكد عليه القول :

ـ شاة يا أخا العرب ... نأكل منها ... وتأكل أنت أيضاً ...

ولما لم يجد منه جواباً قال :

ـ إن كنت ترى صعوبة في إعدادها ، فأنا أساعدك فيها !!

وعندئذ لم يجد الراعي بداً من أن يفصح عن الحقيقة المخجلة ... في أنه لا يستطيع تقديم ما لضيفيه من حق ...

ورأى أن يبين عذره ... لعل الرجلين يقبلان منه ذلك ، فقال :

ـ إن الشياه ليست لي ...

فأنا عبد مملوك ... والغنم ملك لسيدي ...

وقد أذن لي أن أسقي عابر السبيل من لبنها ...

غير أنه لم يأذن لي بذبح شيء منها ...

ولكن اعتذار الراعي هذا أعطى ابن عمر مادة حافلة بالمحرجات لمتابعة امتحانه لمضيفه الصائم ، فقال له :

ـ أين أنت من سيدك الآن ؟؟!!

وكان « مجاهداً » لم يدر بخلده شيء مما يشير إليه ابن عمر فقال :

— هو بعيد عنا ... على مسيرة ثلاث ليال ...

واضطر ابن عمر إلى التصريح بما لوّح به فقال :

— إذن ... ما دام سيدك بعيداً عنك ، لا يراك ، فاذبح لنا شاة وأنا أعطيك ثمنها ...

وبنفس سليمة الطوية ، لا تعرف إلا الخير ، قال الراعي :

— وإذا لم يرض سيدي بذلك ؟؟

— وهل من الضروري أن تخبره ؟!

— وماذا أفعل بثمنها ؟؟

— تأخذه لك ... يبقى المال كله لك ...

— وسيدي ؟؟

والغنمة ؟!

— تقول له : « **أكلها الذئب** » !!

وحملق الراعي في وجه محدثه ...

وغلت الدماء في عروقه ، وكأنما هناك جريمة نكراء ، لا يقبل العقل السماع بها ، فكيف بها تحدث أمام عينيه ، وفي وضح النهار ؟ !!

وبعد أن حبس نفسه برهة من الزمن صرخ في وجه ضيفه يقول :

ـ ماذا تقول يا رجل ؟؟

أذبح الغنمة ... وآخذ ثمنها ... وأقول أكلها الذئب ؟؟!!

ـ أجل ... ولن أخبر سيدك بشيء ...

ـ وهل تستطيع أن تستر الأمر عن العليم الخبير الذي (يسمع دبيب النملة السوداء ، في الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء) ؟؟ !

ـ وهل تستطيع أن تمنع وصول الخبر إلى الذي يرانا آناء الليل ، فلا نغيب عنه طرفة عين ؟؟ « **الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين** »[1] .

وهل تستطيع أن تخفي الأمر عمن « **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور** »[2] ؟!

« **إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء** »[3] ...

إنه هو الذي يرصد أعمال العباد ، فلا يفوته منها شيء ، ثم

---

(١) « سورة الشعراء » : الآية ـ ٢١٩ ـ
(٢) « سورة غافر » : الآية ـ ١٩ ـ
(٣) « سورة آل عمران » : الآية ـ ٥ ـ

يجازيهم عليها ... قال تعالى : « إن ربك لبالمرصاد »[1].

وردفي الأثر : (إن الرجل ليُسأل عن كحل عينيه وعن فتّة الطين بأصبعيه ،وعن لمسه ثوب أخيه)[2] .

فماذا تريدني أن أجيب المولى سبحانه غداً عندما يوقفني بين يديه ويسألني عن الغنمة وثمنها ؟؟

ولكن عبد الله أراد أن يدفع إلى ميدان المعركة،ببعض الشبه التي ربما أثارها الشيطان، في نفوس الكثير من ذوي الضمائر العفنة ... لعله يضعف أمامها ويتراجع ... فأثار أمامه ذلك الواقع المؤلم الذي يعيشه كل يوم ، وحرك في نفسه دوافع الثورة فقال :

– إنك إنسان فقير ... لا تملك من الدنيا شروى نقير !! وصاحبك غني متخم لا يضيره الغنمة والغنمتان وهو يستغل جهدك وعرقك أبشع استغلال ...

وبأسلوب المناقشة التي تعتمد على المغالطة تابع يقول :

– هب أن الذئب عدا على واحدة من الغنم ... أفلا يضيع ثمنها ؟؟

---

(١) « سورة الفجر » : الآية – ١٤ –
(٢) « احياء علوم الدين » : الجزء الرابع ، الصفحة – ٣٨٨ –

ـ بلى !!

ـ ألستُ أفضل من الذئب ؟؟

ـ بلى !!

ـ إذن لماذا لا تذبح لي الغنمة ، فآكل منها ، وتأخذ أنت الثمن فتستفيد منه ، ونكتم الأمر بيننا فلا يعلم سيدك بشيء أبداً ؟؟ !

وبدأت آثار الحدّة تظهر على حديث الراعي « مجاهد » وهو يقول :

ـ كيف تريدني أن أتجرأ على معصية الله ؟؟

والله لكأني بك شيطان في ثوب إنسان !!

لا والذي لا إله إلا هو ..

لئن كنتُ تجرأتُ على معصية الله وأنا أعرف أنه يراني فلقد اجترأت على أمر عظيم جداً !!

ولئن تجرأت على معصيته وأنا أظن أنه لا يراني فلقد كفرت من حيث لا أدري !!

وتابع ابن عمر مغالطته الصورية ، التي قصد بها أن يصل إلى حقيقة أعماق هذا الإنسان الماثل أمامه فقال :

ـ لقد قلت لك إنك إنسان فقير ، والنبي ﷺ يقول :

(كاد الفقر أن يكون كفراً)[1] ... كما أنني وعدتك ألا أخبر سيدك بشيء عن الغنمة وثمنها ؟!!!

فانفجر الراعي ، كالبركان الثائر ، يصيح بأعلى صوته قائلاً :

— إذن فأين الله ؟؟!! فأين الله ؟؟!! فأين الله ؟؟!!

وأثر صدق إيمان هذا الراعي بابن عمر وصاحبه ... فغابا عن الوعي ... وتابعا معه يقولان :

— فأين الله ؟؟!! فأين الله ؟؟!!

وأخذ الثلاثة عن أنفسهم وهم يرددون :

— فأين الله ؟؟!! فأين الله ؟؟!!

لقد شعروا بساعة من القرب الالهي ... وكأنهم مع الله!!

لقد شعروا بساعة من الايمان الرفيع النـــادر ، الذي لا يستطيع صاحبه أن يعبر عنه بأفضل من أن يقول : (كأني أنظر إلى عرش ربي ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أسمع إلى عواء أهل النار) فقال له المصطفى عليه الصلاة والسلام : (مؤمن نوّر الله قلبه)[2] .

---

(١) ورد في الحلية عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يكون يسبق القدر) .

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد : عن حارث بن مالك .

انهم قوم عرفوا الحقيقة ... واستيقنتها قلوبهم ...
فغاصوا في بحر الحب الالهي ... فالله معهم .. وهم مع الله.

قال تعالى : « وهو معكم أينما كنتم »[1] ...

وقال جل شأنه : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »[2]

وبعد ساعة من الوجد الإلهي والشعور الوجداني بالله ... بدأ الثلاثة يركنون إلى الهدوء . . رويداً رويداً ... ليعودوا إلى وضعهم الطبيعي ...

ومضت فترة من الهدوء ، أخذ كل منهم خلالها قسطاً من الراحة . . . أنشأ بعدها ابن عمر يخاطب نفسه ، في صوت خفيت لا يكاد يُسمع القريب :

ـ لتهنأ عينك يا سيدي يا رسول الله ... فإن أمتك لاتزال من بعدك على الطريق الذي رسمته لها ... لا تزال على الإسلام الحي الصحيح السليم ... إسلام الأعمال ، لا إسلام الأقوال ... إسلام التقوى ، لا إسلام الادعاء ... إسلام القلب ، وليس إسلام اللسان !!

---

(١) « سورة الحديد » : الآية ـ ٤ ـ
(٢) « سورة ق » : الآية ـ ١٦ ـ

ـ لتقرّ عيناً يا سيدي يا رسول الله ... فإن أمتك أمـــة الأبطال الميامين ...

فما البطولة الا انتصار على الأهواء قبل مجابهة العدو ، وثبات أمـــام نزعات النفس الأمارة بالسوء قبل الثبـات أمام ضربات السيف والرمح ! !

وهـل يشك إنسان في أن الصراع مع عدو يسري منه مسرى الدم أصعب من الصراع مع عـدو يقيه منه ترس ويدفعه عنـه سنان [1] ؟!!

ـ ما أروع قولك يا سيدي يا رسول الله حين كنت ترجـع من المعركة وأنت تقول :

(قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، مجـاهدة العبد هواه) [2] .

---

(١) روى الديلمي عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس عدوك الذي ان قتلك أدخلك الله الجنة ، وان قتلته كان لك نوراً ، ولكن عدوك نفسك التي بين جنبيك ...) .

(٢) روى الخطيب في تاريخه عن جـابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقوم عادوا من الجهاد : (قدمتم خير مقدم،وقدمتم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ، مجـاهدة العبد هواه) .

حقاً ان الانتصار على النفس الأمارة بالسوء هو الخطوة الأولى في الانتصار على العدو الخارجي[1] .

وإن تحرر النفس الإنسانية من ربقة الشهوات ، وترفعها عن الأهواء ... خطوة أساسية في سبيل الوصول إلى تحرير المجتمع وتخليصه من الأعداء !!

ما أجمل أن تكون الأمة كلها يداً واحدة !! . الأجير يخاف الله في مال سيده فيرعاه حق الرعاية ... وصاحب المال يخاف الله في معاملته لأجيره فيعطيه حقوقه كلها كاملة غير منقوصة ...

انها لأمة متكاتفة متعاونة ، قد تآزرت فيها جهود جميع طبقاتها ، وتعاونت مختلف فئاتها ، فكانت حقاً كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى[2] !!

---

(١) روى الترمذي عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (المجاهد من جاهد نفسه في الله تعالى) .

وروى الديلمي عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله تعالى) .

(٢) عن النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)

رواه مسلم وأحمد في مسنده .

وبعد أن صمت برهة عاد يقول :

سننتصر ... سننتصر بإذن الله ...

فالمسلمون كلهم – في جميع بقاع الأرض – حتى الذين هم في جوف الصحراء ، مسلمون حقيقيون .. قد نصروا الله في أنفسهم ، وفي معاملاتهم ... لذلك فهم جديرون بنصر الله وتأييده ...

ولولا أن الدعاء مطلوب .. لما كنا بحاجة إلى أن نلحف بالدعاء .. فالله عز وجل قد جعل نصر المؤمنين عهداً قطعه على نفسه .. فقـــال جل من قائل : **« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »**[1].

ثم التفت عبد الله إلى الراعي المؤمن .. يسأله عن اسم سيده ومكانه .. فعرفه .. إنه واحـــد من سادة مكة ، كانت له به معرفة ...

وما أسرع أن استأذن ابن عمر « مجاهداً » !!

وذهب يعتمد على صاحبه عبد الرحمن في العودة إلى مكة ..

إن آثار تلك الفورة العاطفية لاتزال على جسده المنهك ..

بادية

(١) « سورة الروم » : الآية - ٤٧ -

بل إن آثار ذلك الوجد لاتزال بادية على لسانه الذي كان يردد وهو في الطريق :

فأين الله ؟!! فأين الله ؟؟!! .

ولكن بصوت خفيت ، لايقدر على رفعه ..

● ● ●

ووصل « عبد الله » إلى مكة منهك القوى ..

ولم يستجب لطلب عبد الرحمن أن يتجه فوراً إلى منزله ليستريح ..

بل إنه اتجه به إلى مكان آخر ..

لقد تحامل على نفسه .. وسار في الطرقات .. يبحث عن منزل سيد ذلك الراعي المؤمن .. حتى عثر عليه ..

واشترى العبدَ الراعي وما معه من الغنم ..

ثم أشهد الناس على نفسه .. بأنه أعتق ذاك الراعي المؤمن لوجه الله ، وأعطاه الغنم الذي كان معه ..

وأردف ذلك بقوله :

« هل جزاء الاحسان إلا الاحسان » (١)

---

(١) « سورة الرحمن » : الآية ـ ٦٠ ـ

ثم ذهب يردد تلك العبارة التي أثرت في أعماقـــه فأخرجته عن وعيه :

فأين الله ؟! فأين الله ؟!

وقال لمن حوله :

« لقد اعتقته في الدنيا هذه الكلمة ، وأرجو أن تعتقه في الآخرة » .

إنها لكلمة لو وزنت بالجبال لرجحت . . إنها كلمة التقوى الحقيقية .. كلمة الإيمان الراسخ .. وهل يستطيع إنسان أن يعصي الله وهو يشعر أنه في معية الله ، لايغيب عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلـــك ؟ . **« رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله »**[1] ..

لقد انجلت قلوبهم بذكر الله .. وتفتحت آفـــاق أنفسهم على الله ...

وانطلق ابن عمر إلى منزله وهو يردد :

« فأين الله .. فأين الله » .

ومازال يرددها أمداً طويلاً من حياته .. ويبكي كلما ذكرها ويقول :

---

(١) « سورة النور » الآية : - ٣٧ - .

« انها والله لعبارة تعتق صاحبها من النار »

انها والله لعبارة توصل صاحبها الى الايمان الحقيقي !!

انها والله لتأخذ بيد الانسان الى مايرضى الله !

انها والله لجديرة بأن توصل صاحبها إلى الفراديس العليا في جنان الله !



الجوهر النفيس[1]

لقد تعرفنا اليوم بما هو أثمن من الفرو الأصيل الذي كنا نبحث عنه أياماً عديدة ... بل لقد عثرنا على ما هو أغلى من الجوهر النفيس ...

هكذا قال « المستر كراين » لزوجه ، بعد أن انصرف عن غرضه الأول ، في شراء عدد من جلود الفرو الأصيل ... ووقف مبهور الأنفاس أمام هذا البائع يحدجه ببصره ... يحدق فيه النظر ؛ لعله يستطيع أن يخترق ببصره المادة الصماء ليصل

---

(١) هذه القصة مأخوذة عن قصة واقعية سمعتها في مجالس الجمعة في جامع أبي النور من سماحة الدكتور الشيخ احمد كفتارو .. كما يرويها كل من سماحة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين ، وصاحب الفضيلة الأستاذ علي رشدي العناني .. ولقد أخبرني سماحة الأستاذ الحسيني أنه التقى ببطل القصة «الدكتور كراين» الذي كلف من قبل عصبة الأمم برئاسة اللجنة التي أرسلت الى البلاد المنسلخة عن الدولة العثمانية لتقرير المصير .

إلى ما وراء هذا الستار الجسدي ، فيزداد تعرفاً بطوية هذه النفس التي بدت له عظيمة كالطود الشامخ والجبال الشم الرواسي !!...

لقد تردد على هذا المحل مراراً ، ينظر فيما يحتويه من تحف شرقية ، وعاديات نفيسة ... فكان يرى أبا أحمد ، يقف وسط دكانه الضيقة ، بين الفراء المعلقة هنا وهناك ، يغيب وراء بعضها تارة ، ويظهر من خلالها تارة أخرى ؛ فيبدو في قامته المعتدلة ، وقوامه النحيل ، ولحيته الخفيفة التي داخل البياض معظمها ... قد شمر أردان ثوبه النظيف ، فبدا ساعداه النحيلان وهما يعملان بخفة في صب الشاي الصافي، في الكؤوس المزركشة التي تنم عن ذوق كبير ... ذاك الشاي الذي اعتاد أن يقدمه لزواره وزبائنه ؛ مبالغة منه في الترحيب بهم وإكرامهم .

جلس « المستر كراين » على عتبة مرتفعة في طرف الدكان ، وإلى جانبه زوجه « المسز كراين » ... وراح يراقب أبا أحمد ، ويستمتع بمنظر ماء العقيق يتلألأ في الكأس البراق الذي قُدم له مع وافر الاحترام .

ولفت نظره تلك المعاملة الصادقة التي كان صاحب الدكان يقابل بها الناس جميعاً ... حيث رآه يتعامل معهم في البيـــع والشراء ، بدقـة متناهية تدل على ورع زائد ، وخوف كبير من أن يداخل صندوقه درهم من حرام .

واستغرق الضيف في مراقبة مضيفه ، بعد أن استحوذ الإعجاب على نفسه ... ولم يحل بينه وبين متابعة تأملاته ، إلا ما أبدته زوجه من تذمر ، بعد أن ملت طول استغراقه الصامت ، وخشيت أن يفوتها أمور كثيرة كانت تنتظرها ... فنبهت زوجها إلى ضرورة طلب جلود الفراء من صاحب الدكان ؛ لتأخذ بغيتها ، وتتابع طريقها ...

فانتبه « المستر كراين » إلى مهمته الرئيسية التي حضر من أجلها الى هذا المحل ، وأقبل على أبي أحمد يرغب إليه أن يعطيه من الفراء الجيدة الأصيلة ...

وتفرس أبو أحمد في وجه « المستر كراين » ليعرف مدى وقع حديثه وهو يقول :

— تريد الفرو الجيد ؟؟ إنه باهظ الثمن !!

— أجل إنني أريد الفرو الجيد ... وإنني على استعداد لدفع قيمته ... وأعرف أن ثمنه يزيد على أضعاف النوع غير الجيد ...

— وهل يسهل عليك تمييز النوع الجيد من غيره ؟؟

— نعم ... فلديّ خبرة كافية ...

ـ أعتقد أنه من الأفضل لك ألا تشتري إلا بعد أن تستعين بخبرة أحد الذين تثق بهم ... إذ قد تنطلي عليك خدعة بعض الغشاشين ، فتشتري الفرو الرخيص بقيمة الفرو النفيس ... حيث ان هناك تشابهاً كبيراً بين النوعين في المظهر ، على الرغم من الاختلاف الكبير في الثمن ..

ـ لا ... لا حاجة بي إلى الاستعانة بخبرة أحد فلدي من خبرتي الشخصية ، وخبرة زوجي ما يعد كافياً !!

ـ وهل أنتما على علم بالأسعار ؟؟

ـ لقد قمنا بجولة اطلعنا خلالها على أسعار مختلف الأنواع ... وأعتقد أنني إذا ما عثرت على مطلوبي فلن يعنيني زيادة السعر .

وهنا أدرك أبو أحمد أن زبونه هذا يسهل الإيقاع به ؛ إذ أنه مصاب بغرور كبير ، على الرغم من جهله الفاضح ... فقرر في نفسه أمراً ... والتفت إليه يقول :

ـ لا بأس ... سأعرض عليك ما عندي ... وإن كنت أفضل ألا تدفع مثل هذا المبلغ الكبير ، قبل أن تتأكد من قيمة ما تشتري ...

ـ لقد ذكرت لك أن لدي من الخبرة والمعرفة بالأسعار ما يجعلني متأكداً من قيمة اي نوع من هذه الجلود !!

وأدار أبو احمد وجهه وهو يخفي ابتسامة سخرية عريضة ، أبت إلا ان تظهر على وجهه ، وقال :

— كما تريد ... فالأمر اولاً وآخراً يتعلق بك انت !!

وسارع إلى إعداد كأسين جديدين من الشاي ... قدمها لزبونه ...

وبينما كان « المستر كراين » وزوجه يحتسيان الشاي الساخن، عرض ابو احمد عليهما أنواعاً جذابة من جلود الفراء أحكم اختيارها واحضرها من خزانة فخمة يبدو انها مخصصة للأنواع الراقية ... فأعجب بها الزوجان ... بل نالت من تقديرهما ما جعلهما يبديان دهشتهما لمرآها !!

وبعد أن شدد أبو أحمد على زبونه بوجوب إعادة النظر ، والتأمل الدقيق بالبضاعة المعروضة ، أكد « المستر كراين » إعجابه بها ، وأعرب عن رغبته الصادقة في شرائها ...

وعاد ابو احمد ليطلب من الزبون ان يمعن النظر فيها قبل ان يشتريها.. فلربما كانت من النوع غير الجيد ... وبين له انه لن يتحمل اي نوع من المسؤولية بعد ان يتم البيع ...

غير ان « المستر كراين » وزوجه ، عادا ليؤكدا — من

غير تردد – الرغبة في شراء ما أمامها من فراء .. على ان يتحملا هما مسؤولية هذا الأمر !!

وتم الاتفاق الجازم بين الطرفين على شراء الفراء بمبلغ خمسة آلاف دولار .

ودفع « المستر كراين » المبلغ المطلوب ، وابتسامة الرضى تعلو شفتيه ...

وتسلم الفراء المرغوب فيها، بعد أن لُفَّت لفاً أنيقاً، يتناسب مع أناقة البضاعة التي في الداخل ...

ثم ودع أبا أحمد ، شاكراً فضله ... وانصرف يحمل أجمل هدية ، كان قلب الزوجة يتراقص لها طرباً ... ذلك انها لم يقع قط بصرها على شبيه لها ...

وقبل ان يخطو الخطوة الثالثة خارج المحل ، وبينما كان يهم بأن يحدث زوجه عن سروره البالغ بهذه الصفقة الموفقة ، سمع صوت ابي احمد يناديه من داخل الدكان وهو يقهقه في ضحكة سيطرت عليه ؛ وكأنما هناك امر غريب ... فالتفت « المستر كراين » ... وعاد خطوات ، ليلتقي « بأبي أحمد » عند المدخل ، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الاستفسار عن سبب ذلك النداء المستعجل وتلك الابتسامة العريضة التي لا زالت آثارها

بادية على محياه ... وهي تحمل بين طياتها ما يثير الكثير من التساؤلات ...

وكأنما قرأ أبو أحمد آثار الامتعاض وعلامات الاستفهام على وجهه فقال :

– « مستر كراين » ... عفواً ... لقد أخطأت فيما أعطيتك من بضاعة ... لقد أعطيتك فرواً من النوع غير الجيد !!

–لا ... لقد رأيتك وأنت تضعه في هذه اللفافة ... إنه الفرو نفسه الذي عرضته علي ... لم تخطىء به مطلقاً !!

– حقاً ... إنه الفرو نفسه الذي رأيته ... ولكن مارأيت ، ليس من النوع الجيد ... إنه جميل في منظره ... خلاب في شكله ... ولكنه ليس من النوع الأصيل الذي تبحث عنه !!

– لا .. لقد فحصناه أنا وزوجتي فحصاً دقيقاً ... وهو من النوع الرفيع جداً .

– « مستر كراين » ... أعتقد أنه ليس لديك الخبرة الكافية !! فإن ما بين يديك من الفرو من النوع الرديء ، على الرغم من منظره الجذاب ... لذلك لا بد من إعادته إلي ، لأعيد إليك المبلغ الذي دفعته لي ثمناً للفرو الجيد !!

وشدد « المستر كراين » قبضته على ما يحمل من فراء ،

وازداد بها تمسكاً ... ثم التفت إلى زوجه يقول باللغة الإنكليزية ما مفاده :

ـ يبدو أنه ندم لبيعه هذا النوع النـــادر بمثل هذا المبلغ الزهيد ... فأجابته زوجه :

ـ حقاً ... إنه لنوع نادر جداً ... وهو يساوي ضعف هذا المبلـغ ... ولكن إياك أن تدفع له فلساً واحـــداً زيادة ... فلقد تم الشراء ، واستوفى المبلغ الذي طلب ، بتمامه وكماله !!

والتفت « المستر كراين » إلى أبي أحمد يقول :

ـ لن أعيد لك هذا الفرو ... فلقد اشتريته بحرّ مالي ... ونقدتك الثمن بكامله !!

ـ حقاً ... ولكنه لا يساوي المبلغ الذي دفعته الي ... إن قيمته لا تزيد على خمسمائة دولار ... فأعده إلي حتى أعيـد إليك نقودك . . .

وألقى الزوج نظـــرة سريعة على عيني زوجه اللتين ازداد توترهما فارتفع عنهما الحاجبان ، فعرف إصرارها على رفض العرض الذي قدمه صاحب المحل ...

ولكنه رأى الصدق يشع من حديث أبي أحمد ، الذي كان يلح على فسخ البيع واستعادة متاعه ...

وبعد لحظات سريعة ، كان خلالها نهباً للصراع النفسي و التردد المحير ، أجاب البائع بقوله :

لقد رضينا بشراء ما أخذناه بالمبلغ الذي دفعناه لك... ولن يسعك التراجع مطلقاً !!

وهنا شعر « أبو أحمد » أن الأمر يكاد يفلت من بين يديه ، فيخرج عما كان قد خططه ...

وبنبرات حادة قال :

– ان كنتَ قد رضيتَ بذلك لنفسك فأنا لا أرضى به لديني ...

وبحركة سريعة امتدت يد أبي أحمد لتمسك بالفراء الملفوفة... وهو يتابع قوله :

– إنني أخشى على ديني ... وأخاف أن يدخل المال الحرام إلى صندوقي إذا ما بعتك ذلك بأضعاف أضعـــاف قيمته ... خصوصاً أنني بعتك هذه الفراء بهذا المبلغ المرتفع باعتبار أن ما قدمت لك، إنما هو فراء من النوع الجيد ... والحقيقة أنه من النوع الرديء ، ولا تزيد قيمته على ٥٠٠ دولار .

ثم أكد ابو احمد حديثه بقوله :

– انني لا أقبل ، بأي شكل من الأشكال ، أن يبقى في صندوقي درهم من حرام !!

وإنني لم أقدم على هذا البيع الصوري – في رأيي – إلا حتى أعطيك درساً بالغاً بوجوب الحذر من الغشاشين المخادعين ... فإذا بك تتمسك بهذا البيع وترفض إعادة البضاعة ، على الرغم من الغبن الكبير الذي اصابك وكنت انا السبب فيه !!

ونظر إليه شزراً وهو يقول بلهجة المغضب :

– أو تريد ان تحبط عملي الصالح الذي اقدمه بين يديّ ، رجاء أن يتقبله الله فأنجو يوم الحساب ... فتكون انت السبب في وقوعي في عذاب الله يوم لا درهم ولا دينار ؟؟!!

أم إنك تريد أن ينمو جسدي من السحت والمال الحرام ... فتكون انت الذي يقذف بي إلى نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة ؟؟!!

وايم الحق .. إنني لأخشى – إذا ما استسهلت أكل الحرام – أن أكون من المنافقين الذين إذا أذنب أحدهم ذنباً لم يأبه ولم يهتم به شأنه في ذلك شأن ذبابة تقع على أنفه .. فيفعل

بيده هكذا . . فتطير الذبابة .. ويكون الأمر كأنه لم يحدث شيء .. ولم يقع شيء . فهل تريدني يا « مستر كراين » أن أكون من أولئك المنافقين ؟؟

ووقف « المستر كراين » يجيل بصره هنا وهناك ...

لا يفهم ما يقع ...

ولا يعرف تفسيراً لما حدث ...

إنه لا يدري ... أهو يسمع ذلك في حلم او في يقظة ؟! كما انه لا يدري ما إذا كان ابو احمد جاداً في كلامه ، او إنه يتظاهر بهذا الكلام (لغاية في نفس يعقوب) !!

ووقف « المستر كراين » جامداً في مكانه لا يتحرك ... لقد أخذ عن نفسه في تفكير طويل ... يحلل خلاله الموقف ... ويتعرف الدوافع ... لعله يجد في ذلك ما يرشده إلى الحقيقة التي غامت عن عينية فلم يستطع استجلاءها ، على الرغم مما بذله من جهد ...

وبعد لأي ... رأى أن يعرض على أبي أحمد عرضاً يعرف من خلاله حقيقة الأمر ، جلية واضحة ، لا مجال فيها للبس أو موارية ... فالتفت إليه يرمقه بنظراته النفاذة ... ليرى

رد فعل حديثه ... لعله يستنتج من ذلك شيئاً ... ثم قال :

- إن كان الأمر على ما تقول ، فاردد علي الفـــرق بين قيمة هذه الفــــراء وما أخذت مني ... أربعة آلاف وخمسمائة دولار !!

وما أشد دهشته عندما لحظ أن رد الفعل كان فطرياً صادقاً ... حتى إنه كان أسرع من البرق الخاطف !!

ومـا أشد انجذاب عينيه إلى يد أبي أحمد التي امتدت فوراً إلى صندوقه ؛ لتخـــرج المبلغ الذي قبضه ... خمسة آلاف دولار ... فيسحب ابو احمد منه خمسمائة يعيدها إلى الصندوق ... ويعيد الباقي إلى زبونه ... يعدها له عداً ... أربعـة آلاف وخمسمائة دولار ... يسلمها إليه ... ويترك له لفافة الفراء... بنفس راضية ... قد زال منها كل مابها من غضب بعد أن زالت أسبابه !!

لقد كان بقاء تلك الآلاف من الدولارات في صندوقه أمراً يؤرقه ويدعوه إلى هذا الغضب العظيم !!

أما وقد زال ما يزعجه ، برد المبلغ إلى صاحبه ، فقـــد اطمأنت نفسه ، وانفرجت أساريره ... وعادت إليه ابتسامته المعهودة وهو يقول :

ـ « مستر كراين » لا بد لي من أن أعلمك أن هذا الفرو الذي اشتريته من نوع (استراكان) ... وهو يشابه الفرو الأصيل في منظره ... ولكنه لا يدانيه في الجودة !!

وإن كنت تود شراء الفرو الجيد ذي القيمة المرتفعة ، فإنك لن تجد بغيتك عندي ... بل عليك أن تبحث عن ذلك في السوق بحذر كبير !!

وبعد أن أحكم « المستر كراين » إطباق يده على المبلغ المعاد إليه ، رأى نفسه يقف مشدوهاً أمام أبي أحمد ، وقد استرخت يده ، ليضع ما فيها من نقود على منضدة قريبة ... ثم يضع ، على غير شعور منه ، الفراء الذي حرص عليه بجوار النقود ... ويقف مبهور الأنفاس ، فترة طويلة من الزمن ، يتأمل هذا الرجل الذي لا كالرجال !!

ثم لا يلبث ان يسترد أنفاسه ، فيهمس في أذن زوجه التي بلغت بها الدهشة غايتها ويقول :

ـ أي عزيزتي ... لئن كنا نظن أننا حصلنا على الفرو الأصيل الجيد الذي كنا نبحث عنه ، فاننا في الواقع قد عثرنا على ما هو أثمن من هذه الفراء ..

بل لقد عثرنا على ما هو أغلى من الجوهر النفيس ... اننا تعرفنا بملاك في ثوب انسان ...

وأطرقت المرأة قليلاً .. ثم قالت :

ـ حقاً ... ما ينبغي لهذا الرجل أن يكون إنسياً... ان ورعه وتقواه ليرفعانه الى ما هو أعلى من مستوى البشر !!

والتفت « المستر كراين » إلى ابي احمد يقول :

ـ إن شغفي الكبير بالفراء التي اشتريتها منك قبل قليل ، لا يساوي شيئاً أمام ما تولد في نفسي الآن من شغف جديد ، وحب للاستطلاع شديد ... **انني جد تواق ،الى أن أعرف السر الذي دفعك الى أن تصرّ بشدة ،على وجوب رد هذا المبلغ الكبير،الذي أخذته مني وأنا راض كل الرضى بدفعه اليك ، بل وأنا أصر عليك بأن تقبل به !!!**

ثم اضاف يقول : وسأكون بالغ السعادة والسرور إذا ما تفضلت فوضحت لي ذلك بصراحة تامة ...

فلم يجد ابو احمد بداً من ان يشرح له الموقف ... لذلك طلب منه ان يجلس على مقعد قريب ؛ ريثما يُحضر له كأساً من الشاي ، فترتاح النفس لشربه ...

وبحذق كبير ، يدل على مهارة فائقة ، كانت يد ابي احمد تعمل على صب الشاي وتقديمه للزبون . .

وبينما كان الرجلان يحتسيان كأسيهما بدأ ابو احمد يحدث

جليسه عن ذلك السر الذي تلهف لسماعه ، فأنشأ يقول :

ـ ان الذي دفعني الى ذلك انما هو ديني ، وخوفي من ربي الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

وازداد « المستر كراين » تلهفاً لسماع توضيح لما يلقى عليه ... فأصاخ بسمعه إلى جليسه ، وهو يتلو عليه قوله تعالى : **« يومئذ تعرضون ، لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه . فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية. وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه »** [١]

لقد تلا ابو احمد تلك الآيات بقلب ذاكر يشعر بالحضور مع الله ، وبنبرات تدل على تأثره البالغ بمضمونها ؛ الأمر الذي أدى إلى ان ينتقل إشعاع ذلك التأثر إلى نفس سامعه ؛ فتتفتح مغاليقها طرباً وسروراً ...

---

(١) « سورة الحاقة» الآية : ١٨ — ٢٩ .

ولكأنما ادرك ابو احمد ان جليسه يتساءل في نفسه عن وجه الحرمة في بيع الفراء الرديء بسعر الجيد ، ما دام الأمر مجال بيع بالتراضي ؛ فأردف يقول :

— وإنني إذا ما بعتك هذا الفرو الرديء بقيمة الفراء الجيدة أكون قد خدعتك وغششتك ... عند ذلك أكون معرّضاً لنقمة الله رب الوجود ... كما اكون قد رميت بنفسي خارج صفوف المسلمين ... حيث أن نبينا محمداً ﷺ حذرنا من الغش بقوله : (من غش فليس منا)[1] ... ذلك انه يتحتم علي -في نظر الإسلام- ان ابين ما أعلمه من عيب في هذه الفراء ، فلقد قال رسولنا محمد ﷺ : (من باع عيباً لم يبينه لم يزل في مقت الله ، ولم تزل الملائكة تلعنه)[2] فكيف تريدني ان أرضى بما يجعلني خارج صفوف المسلمين ، عرضة لغضب الله رب العالمين ??

بل كيف تريد مني أن أرضى بأن يحبط عملي عند الله أو أن أقذف في جهنم وبئس المصير ?? خصوصاً وأن نبينا محمداً ﷺ يقسم بالله تعالى فيقول :

(والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف باللقمة الحرام في

---

(١) من حديث رواه « ابن ماجه » . كما روى الإمام مسلم عن « أبي هريرة » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا)

(٢) رواه ابن ماجه .

جوفه ما يُتقبّل منه عمل أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت[1] فالنار أولى به) [2] .

وازدادت النبرات شدة بعد ان ازداد ابو احمد انفعـــالاً وهو يقول :

ـلا . . لا ... لن يكون هذا ـ إن شاء الله ـ أبداً ... وإن ما آخذه منك ـ بغير حق ـ سيكون فعله في روحي أشد تأثيراً من لدغة ثعبان أقرع لصدر إنسان ليس بينه وبينه وقاء !!

ولذلك رأيتني أسارع فأدفع لك الفـرق ، وأنا شاكر لك قبولك إياه .. لأنك بذلك تكون قد أنقذتني من النار ، وأعدتني إلى حظيرة الدين ... فالدين لا يتجلى على حقيقته إلا في المعاملة .

وبعد أن امتلأت نفس « المستر كراين » إعجـاباً بحديث « ابي احمد » الشائق، وعمله الرائع ... أطرق قليلاً يُعمل تفكيره...

ثم رفع رأسه وسأل « ابا احمد » عن بعض الكتب التي تتيح له فرصة الاطلاع على هذا الدين الذي انتزع الإعجاب مـــن

---

(١) السحت : الحرام أو هو الخبيث من المكاسب .

(٢) رواه الطبراني في الصغير .

نفسه انتزاعاً .

وقبل ان يصل إلى منزله كان قد عرج الى السوق ، واشترى تفسيراً للقرآن الكريم الذي هز أعماق وجدانه ... كما اشترى بعض الكتب التي أرشده إليها صاحبه المسلم « ابو احمد » .

واعتكف على قراءتها بشغف كبير ... لا يكاد يأتيه النوم إلا قبيل طلوع الشمس !!

لقد دخل نور الايمان الى أعماق قلبه ،وهو في دكان « أبي أَحمد » الرجل المؤمن الذي فهم الاسلام على حقيقته... كما دخل نور الفكر الاسلامي،الى عقله،في الليالي التي تلت ذلك اليوم الذي تعرف فيه على أبي أحمد » ...

غير أنه لم يشأ ان يعلن إسلامه بشكل رسمي ؛ حتى لا يسبب الإزعاج لزوجه وأسرته ... بعد إذ صار طاعناً في السن ، ولم يبق قادراً على المجادلة مع الأهل والأصحاب الذين لربما ثاروا عليه .

ولكن ... ما كانت القيود الرسمية لتستطيع ان تحول دون الاعتقاد بهذا الدين **وبذل كل ما بوسعه،للعمل وفاقاً لمقتضيات هذه العقيدة الجديدة،التي غرسها في أعماق قلبه،الداعية الى الله « أبو أحمد » بائع الفرو .**

---

(١) كتب إلي الأديب الكبير ، دولة الأستاذ حسن الحكيم ، رسالة =

• • • • •

=يؤكد فيها صحة اعتناق « الدكتور كراين » الدين الإسلامي سراً ، من غير أن يجاهر به ، خشية الإيقاع به ، بعد أن أصبح طاعناً في السن .

كما أورد نبذاً من أعمال « الدكتور كراين » التي تدل دلالة قاطعة على اعتناقه لهذا الدين الإسلامي الحنيف .. ولا بأس أن نذكر طرفاً منها :

« إن المغفور له الدكتور عبد الرحمن الشهبندر - الذي كان يطوف معه في شوارع دمشق وأحيائها ، للتأكد من ثبات الشعب على رأيه في الاستفتاء - قال لي :

« كنت ماراً و « المستر كراين » ذات يوم من أمام جامع الإسعاف - في دمشق - وهناك كان المؤذن يؤذن ، وناقوس الكنيسة القريبة منه يدق ، فالتفت إليّ قائلاً : (أين صوت المؤذن ، الذي يخرج من أعماق قلبه ، بتوحيد المولى عز وجل من صوت هذا الناقوس : طن .. شن ... رن) !!

ثم علق دولة الأستاذ الحكيم على ذلك قائلاً :

• • • • •

• • • • •

=« فهل يحتاج إسلام « المستر كراين » إلى دليل بعد قوله هذا ، وبعد قوله قبل ذلك لزوجته : لقد عثرنا على ماهو أغلى من الجوهر النفيس ، وهو يقف مشدوهاً أمام أبي أحمد العامر قلبه بالإيمان » .

كما روى لي الاستاذ الحكيم ـ أمد الله في حياته ـ حادثة أخرى ، جرت له في حلب ، تؤكد ماذهبنا إليـــه ، فقال : عندما ذهب « المستر كراين » إلى حلب ـ لمعرفة رأي السوريين في الاستفتاء ـ التقى هناك بالأسر الحلبية ، وكـرام السيدات المتحجبات ، فأعرب لهن عن سروره من حجابهن ، وشجعهن على ذلك ، وقال : نحن نسعى للرجوع إلى هذه التقاليد . ولا نعلم إن كنا سنوفق إلى ذلك أم لا .

كما أضفى الأستاذ نزيه المؤيد ، عدداً من الخدمات الجلى ، التي أسداها الدكتور كراين للعرب ، مما يؤكد حسن إسلامه الذي كان يبطنه .

(١)

العبد

أطبق الظلام على مدينة السلام (بغداد) الغافية تحت جنح الليل البهيم .. حتى إن من يلتمس نور القمر ، لايكاد يستبين له أثراً .. إذ لم يبق في الشهر القمري إلا يوم أو يومان ..

وجلس ثلاثتهم .. في غرفة قصية من البيت .. بعد منتصف الليل .. وقد علت أصواتهم .. تمزق حجب الصمت التي أرخت سدلها على الكون !!

لقد احتدموا في نقاش بيزنطي عنيف .. كل منهم ينحي باللائمة على الآخرين ..

ومن خلال الضوء الخافت للسراج الصغير المعلق على الجدار..

---

(١) يمكن القارىء أن يعود إلى أصل القصة ، كما رواها المسعودي عن الإمام الواقدي نفسه ، في كتابه « مروج الذهب» في الصفحة - ٤٤٦ - ولقد حرصنا على وضع مانقلناه عنه بين هلالين صغيرين .

كنت تلحظ أشباحهم .. وقد تحلقوا في وسط الغرفة ..حول كيس صغير ملقى على الأرض ..

ولا تكاد تصغي قليلاً حتى تسمع صوتاً أصم .. عندما يأخذ الغضب بأحدهم مأخذاً عظيماً .. فيضرب بيده على الكيس .. فتعرف أن مافيه إنما هو دراهم ، قد كدس بعضها فوق بعض !

وتشتد الخصومة وتعنف .. وكل منهم متمسك برأيه،لا يتزحزح عنه قيد أنملة ..

ويترك أبو عبد الله الواقدي ، صاحبُ الدار ، صديقيه في الغرفة .. ليخرج منها وقد ناء ظهره بثقل الهموم التي يحملها .. ويتجه إلى غرفة أخرى .. يلتمس فيها شيئاً من الهدوء ، يساعده في الاحتيال لمخرج من المأزق الذي أوقع نفسه فيه !

وهناك أسند ظهره على الجدار .. واسترخى قليلاً لتستعيد أعصابه المتوترة شيئاً من الراحة .. ثم راح يستعرض فيذاكرته تسلسل حوادث القضية المتأزمة ، من أولها ..

● ● ●

— أجل .. إن زوجتي ، أم عبد الله ، هي السبب .. لقد « كنت أنا وصديقاي هذان كنفس واحدة » ..

إنها هي التي أذكرتني بالأولاد .. وما ستؤول إليه حالهم من التعاسة والبؤس ، إن هم مر عليهم العيد ، وليس لديهم مايلبسونه أسوة بأولاد الجيران ، ولولا ذلك لما صرت إلى ما أنا عليه اليوم !

ـ ولكن ماذا اقترفت ـتلك المسكينة الصابرةـ من ذنب في قولها هذا .. حتى أحملها المسؤولية ؟!

الحق معها .. فالأولاد في حال يرثى لها .. ولم يبق للعيد إلا أيام !!

« أما نحن في أنفسنا ، فنصبر على البؤس والشدة .. وأما صبياننا هؤلاء ، فقد قطّعوا قلبي رحمة لهم . لأنهم سوف يرون صبيان الجيران ؟ قد تزينوا في عيدهم ، وأصلحوا ثيابهم.. وهم على هذه الحال من الثياب الرثة » !!

ـ لا .. إنها هـي المسؤولة .. أو ليست هي التي حرضتني عندما قالت : « فلو احتلتَ بشيء تصرفه في كسوتهم » ؟

ولذلك فإنني استجبت لطلبها .. وأرسلت إلى أحد صديقيّ هذين .. أحمد الهاشمي « أسأله التوسعة عليّ لِمَاحضر » .

وكان أن « وجه إلي صديقي هذا كيساً مختوماً .. فيه ألف درهم » ..

فتبددت لمرآه على الفور سحب البؤس والشدة ، من أفـق تفكيرنا .. ليحل محلها الرضى والاطمئنان ، على أرفـع معنى، وأجمل شكل !!

« وما استقر قراري .. حتى وصلت إلي رقعة من وفـاء ابن رافع ، ثاني ذينك الصديقين اللذين هما الآن في الغرفة المجاورة « يشكو - فيها - مثل ماشكوت إلى صاحبي » الهاشمي ..

« فوجهت إليه الكيس بحاله » .. من غير أن أنظر مافيه، ووالله ماعلمت عنه شيئاً إلا ما أخبرني به صديقي الهاشمي ، من أن فيه ألف درهم !!

ثم لم ألبث أن خجلت من زوجتي .. بعد أن خشيت أن تسألني عما صنعت بكيس الدراهم ..

« فخرجت إلى المسجد .. فأقمت فيه » إلى مابعد منتصف الليل ، أشغل وقتي بالعبادة والذكر وتلاوة القرآن .

وما إن عدت إلى البيت حتى خاب أملي في تجنب اللقـــاء بها ... لقـد كانت بانتظاري .. فلم أجد مندوحة من شرح الأمر على حقيقته .

وقبل أن أوضح لها ذلك .. قدمت لحديثي بمقدمات كثيرة

عن الأخوّة التي بيني وبين صديقي وفاء بن رافع .. وبينت لها أن مقتضى الأخوة الإيثار .. وأن مانقدمه بين أيدينا إنما هو الذي يبقى لنا عند الله .. أما مانصرفه في شؤون دنيانا فإنه عرض زائل ..

ثم رويت لها ما حدثت به أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما ذبح في منزله ﷺ شاة .. فجعل يأتي الفقير والمحتاج .. فيأمر رسول الله ﷺ بإعطائه من الشاة .. حتى لم يبق منها إلا الكتف .. ولما سأل رسول الله ﷺ عن الشاة (مابقي منها ؟) قالت السيدة عائشة : (مابقي منها إلا كتفها) فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : (بقي كلها غيرَ الكتف) [1] !

ثم أردفتُ ذلك ببيان عظيم ثواب الذي يؤثر على نفسه .. فأشرت إلى أن الله عز وجل ، وصفهم بالفلاح ، فقال جل شأنه: **« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يُوقَ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون »** [2] .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) «سورة الحشر»: الآية ـ ٩ ـ .

– ولكنني ماكدت أوضح لهاجلية الأمر .. في أنني أرسلت كيس الدراهم بكامله إلى صديقي وفاء بن رافع ؛ حتى تبدى لي موقفها .. على غاية من الروعة .. بل على خير ما يمكن أن تكون الزوجة ..

لقد باركت عملي .. وواست كربي .. وخففت عني الهموم التي كانت تراودني ، من جراء ما كان يثور في مخيلتي ، من صورة لأطفالي ، وهم يبكون أمامي صباح العيد ، ولا حيلة لي في سد حاجتهم .

ثم قالت : نستطيع نحن أن نتدبر الأمر بما عندنا من بقايا طعام مدخر .. وثياب قديمة ، يمكن أن نجري عليها بعض التحسينات .

وأردفت تقول : أما صديقك وفاء .. فلو لم يكن بأمس الحاجة لما أرسل إليك يطلب المساعدة .. وهذه الأيام أيام عيد.. وما عبد الله بأحب إليه من جبر الخواطر !!

فتذكرت حينذاك .. مارواه أبو هريرة ، رضي الله تعالى عنه ، عن رسول الله ﷺ فأثنيت عليها وقلت :

– بارك الله فيك يا أم عبد الله ..

والله إنك ماخرجت في قولك هذا قيد شعرة عن مغزى حديث رسول الله ﷺ.. فقالت :

— وما ذاك يا أبا عبد الله ؟

وبصوت هادىء رزين قلت :

— ورد عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال :

(من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .. ومن يسّر على معسر في الدنيا ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن ستر على مسلم في الدنيا ، ستر الله عليه في الدنيا والآخرة . **والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**)[1].

ورحت أتأمل عملي الذي يسره الله لي هذه الليلة .. وأنا لا أشك في فضل الله ، وأن الله تعالى سيضاعف لي ثواب عملي أضعافاً وأضعافاً .. ويكفيني مفخرة أن يكون الله عز وجل في عوني فالله (في عون العبد مادام العبد في عون أخيه)..

فاعتراني سرور بالغ ماعرفت له مثيلاً قط ..

وبت ليلتي هذه .. أتنعم بحلاوة يد خالصة ، اصطنعتها لله، ومن أجل رضاء الله !

---

(١) رواه مسلم وغيره .

وبينما أنا مع زوجتي .. نعيش أحلى ساعة من عمرنا .. نتذوق حلاوة طعم الإيثار .. ونستشعر الفضل الإلهي في تنقيـة نفسينا مما بها من كرب في الدنيا قبل الدار الآخرة ..

وبينما كنا نستمتع بما وفقنا الله إليه في هذه الليلة . . إذا الباب يطرق .. فيقطـع ذلك علينا استمتاعنا بجمال صنيعنا ..

واستغربنا أن يطرق بابنا بعد موهن من الليل ..

وراح الذهن مذاهب عديدة في تقدير شخص الطارق ، والأمر الذي دعاه إلى أن يأتي في هذا الوقت المتأخر ..

وأسرعت في فتح الباب .. فإذا صديقي الهاشمي واقف هناك!
وما راعني إلا أنني رأيته واجم الوجه .. لاينبس ببنت شفه!
فابتدرته بالتحية .. غير أنه لم يرد التحية إلا تكلفاً ..

يا الله !! ماذا حدث ؟؟ ماذا فعلتُ مع هذا الصديق الحميم الذي منّ علي في هذه الليلة .. وتفضل بإعطائي كيس الدراهم ، ذاك الكيس الذي روي لي أن فيه ألف درهم ؟!

ونظرت في يده .. فإذا به يحمل كيساً من الدراهم ، يشبه الكيس الذي مر ببيتي مرور الكرام قبل ساعات !!

وكدت أغرق في التفكير .. باحثاً عن سبب وجوم صديقي على الرغم مما منّ به علي في هذا اليوم ..

غير أنني استدركت .. وقطعت حبل التفكير .. طالباً من صديقي أن يتفضل بالدخول ..

ومن مدخل هذه الغرفة المجاورة .. ألقى الصديق بكيس الدراهم في وسط الحجرة ..

وبوجه متجهم .. ونبرات حادة التفت إلي يقول :

« اصدقني ـ الخبر ـ عما فعلته فيما وجهت إليك » !!

فحرت في أمري.. ولم أستطع معرفة سبب الانزعاج الكبير الذي داخل نفس هذا الصديق !!

لذلك لم أزد على أن « عرّفته الخبر على جهته » .. دون زيادة أو نقصان ..

وما أروع ذلك الموقف .. عندما رأيت وجه صديقي المتقطب تنفرج أساريره .. وتفترّ شفتاه عن ابتسامة عريضة ، اطمأن لها قلبي الهلـع .

غير أني لم أفهم من ذلك شيئاً !!

كما أنني لم أعرف كيف وصل هذا الكيس اليـه بعـد أن أعطيته لصديقي وفاء بن رافع !!

ولما سألته عن جلية الأمر أنشأ يقول :

« إنك وجهت الي – تطلب عوناً – وما أملك على الأرض إلا ما بعثت به إليك » ...

وبت ليلتي ، لا أملك من الدنيا شيئاً أصلح به أمر عيالي وأولادي ولا سيما أن العيد قد صار على الأبواب !!

فكتبت إلى صديقنا وفاء بن رافع ... « أسأله المواساة »... وما راعني إلا أنه « وجه إلي كيسي بخاتمي » عليه !!

ثم أجال صديقي الهاشمي نظراته النافـذة في وجهي ... وابتسم ابتسامة خفيفة وقال :

– والآن يا أبا عبد الله ... هل فهمت ؟؟

فقابلت ابتسامته بأخرى تماثلها وقلت له :

– إذن ما كاد وفاء بن رافع يتسلم كيسك الذي بعثت أنا به إليه ، حتى كنت أنت قد أرسلت اليه تطلب المواساة .. وقبل أن يفتحه أرسله اليك ... بكل مافيه . . . حتى إن خاتمك لا يزال عليه ؟ أليس كذلك ؟؟

– أجل ياعزيزي ...

لقد دار هذا الكيس بيننا نحن الثلاثة ... ثم عاد إلي .
وها أنذا ... أعيده إليك .. فخذه . . ولتطب به نفساً ...

وما رأيتني إلا قد وقعت في حوار جدلي معه ... فابتدرته أقول :

ـ والآن ؟؟ ماذا عساك تفعل بهذه الدراهم ؟؟

ـ والله لا يدخل كيس الدراهم هذا بيتي مرة أخرى ...

ـ وكذلك أنا ... فلن أقبل به مادمتَ ـ ياعزيزي ـ على ماأرى بك من الضيق !! فأنت وايم الحق أشد حاجة مني ...

ـ بل أنت وعيالك أشد حاجة !!

وما كان ينبغي للامام الواقدي ... العالم الجليل .. المشهور بين الناس بمغازيه وسيره ... المعروف بروايته لحديث رسول الله ﷺ ... أن يكون في ضيق أبداً ... فكيف به يقع في هذا الضيق ... وفي هذه الأيام التي يترقب فيها الناس حلول العيد ؟ !!

ـ بل لا ينبغي لتاجر مرموق مثلك ... أن يرى الناس عياله أيام العيد في وضع مزر ...

ـ لقد أقسمت ألا يدخل هذا الكيس منزلي ... ولا عودة لي عن قسمي ! !

ـ وأنا كذلك ... قلت لك : لن أقبل به بعدما علمت ما بك من الضيق ... ولن أعود عما قلت !!

وعرف كل منا أن هذه المناقشةقدوصلت بنا الى طريق مسدودة.. بعد أن أصر كل منا على موقفه ...

فلذنا بالصمت .. نروم المخلص !!

وكان أن وجدت المبتغى .. فقلت لصاحبي :

– ألا ندعو صديقنا الثالث وفاء بن رافع ؟؟ لعل وجوده يحسم المشكلة !!

– أجل .. أرسل إليه من يدعوه .. فلربما كان وجوده خيراً .

وما عتمت أن أرسلت وراء وفاء أدعوه للحضور حالاً !!

وحضر الرجل ... وأطلعته على القضية .. من مبدئها إلى ما وصلنا إليه ... وطلبت منه ان يوصلنا إلى حل مرض ... بعد ان لم نستطع انا وصديقي الهاشمي ان نصل إلى ما يرضينا معاً ...

فالتفت إلي يقول :

– وهل يرضيكما أن آخذ كيس الدراهم ؟؟

إن كنتما قد بعثتما في طلبي من اجل هذا فليكن في علمكما ان هذا الأمر أبعد من رؤية نجوم الظهر ...

وهل يجوز لي أن أتنعم ـ انا وعيالي ـ بهذا المال ، وأترك كلًا منكما ـ على ماله من فضل ومكانة ـ صفر اليدين ... لا يملك من الدنيا شروى نقير ... ولا يستطيع أن يقوم بأود نفسه وعياله ؟؟!

ثم التفت الى زميليه يقول :

ـ إن هذا الذي تفكران فيه .. ليس بعيداً .. بل هو رابع المستحيلات ... فانظرا أمراً غير هذا ..

وازداد الوضع حرجاً وتعقيداً ..

ودار النقاش بيننا من جديد .. كل منا يرى ان صاحبه أحق منه بأخذ المال !! واحتدم الجدل .. وأصبحنا ندور في دائرة مفرغة .. وكأنما نحن نسير في طريق لها اول وليس لها من آخر !! .

وخرجت من دائرة هذا النقاش العقيم .. بعد ان ضاق عليّ صدري .. لعلي اجد في انزوائى بهذه الغرفة المجاورة .. ما أخفف به عن نفسي !!

★ ★ ★

دخلت أم عبد الله – زوجي – فردني ذلك عن متابعة تفكيري في المشكلة !!

واتجهت إلي تقول :

– مالك يا أبا عبد الله ... تجلس هنا وتترك ضيوفك وحدهم ??

– دعيني يا أمة الله .. فإنني افكر في مخرج من المأزق الذي أوقعتينا فيه .. فجعلت الخصومة تدب بيننا نحن الثلاثة الذين كنا « كنفس واحدة » !!

– وما المأزق الذي أوقعتكم فيه ففرقت بينكم أيها الأصدقاء الثلاثة ??

وبصوت متهدج ... حاولت فيه أن أكظم في نفسي كل ما بها من غيظ ... رحت أشرح لها الأمر ... وأبين الحرج الذي استدرجتنا اليه ... من حيث تعلم أو لا تعلم !!

وما أسرع أن طرحت أمامي الحل الذي رأيته مناسباً . . وخلته مرضياً لجميع الأطراف المعنية ..

فقمت متعجلاً إلى رفيقيّ .. أخبرهما بالمخرج من هذا الخلاف ، فقلت : ليس هناك من حل مناسب إلا أن نقسم

هذا الكيس بيننا أثلاثاً ... وبذلك يمكن كلا منا ان يُصلح شأن عياله ، ريثما يبعث الله لنـــا رزقاً آخر ... كما انه لن يكون واحد منا قد حنث بيمينه ...

إذ أنك يا أبا هاشم .. قد اقسمت على الا تدخل الكيس إلى منزلك ...

كما انك يا وفاء .. جزمت بألا يكون نصيبك ...

ولن يدخل الكيس بكامله الى دار احدكما ... ولن يكون نصيب واحد منكما . . بل سينال كل منكما بعض الدراهم ... قليلًا من الدراهم ... مما يكفي لسد النقص ، وإصلاح بعض الحـــال ؟؟

ولما لم أفز منهما بجواب سريع يدل على قبولهما لهذا الاقتراح ... خشيت ان يبـــادر احدهما بجواب لا أرضاه ... فتابعت اقول : والآن ما رأيكما في هذا ايها الصديقان ؟؟

هل تقبلان بالحـــل المقترح ... او تبقيان على ما بيننا من المشاحنة والجدال العقيم الذي لا مخرج منه ؟؟

فقال وفاء :

ـ حقاً ... إنه لا مناص لنا من القبول بهذا العرض المنطقي ...

غير ان صديقنا الهاشمي ... صاح قائلاً :

لا والله ... لن اقبل بهذا الرأي ... لن أوافق على ذلك إلا إذا قبلت انت أن تُخرج قبل ذلك مئة درهم ... تكون لزوجك ام عبد الله ... التي كانت خـــير معين لك على فعل الخـــير ...

فثنّى وفاء على كلام الهاشمي ...

ووجدتني مضطراً للقبول به ...

« فتواسينا الألف ثلاثاً ... بعد أن أخرجنا إلى المرأة قبل ذلك مائة درهم » ...

● ● ●

وقام كل منـــا - في اليوم التالي ـ بصرف الدراهم التي أصابها ...

يسارع في استدراك حاجيات بيته وأولاده ... قبل ان يحل العيد ??

ولم يمس المساء حتى لم يبق معي من الدراهم شيء ...

فتذكرت صاحبيّ اللذين آثراني ... فاعتراني همّ كبير ... لما كنت أتوقعه من ضيق بها ...

وبعد صلاة العشاء ... أُقفرت الطرقات من المارة ... وأوى النـــاس الى منازلهم ... وأوصـدت باب داري ... وجلـت مع الأولاد ... نتناول طعام العشاء ...

وقبل ان أهجع الى النوم ... طُرق الباب ... واستُدعيتُ إلى الخليفة المأمون !!!

فخففت مسرعاً للقائه ... وأنا أفكر فيما عساه يكون سبب تعجل الخليفة في طلبي ، في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل... والناس يترقبون إعلان حلول العيد بين لحظة وأخرى ... فقلت في نفسي : لعل أمراً مهماً من أمور المسلمين ... يشغـل بال الخليفة المأمون !! ولم يكن قط يخطر ببالي ... أن يبادرني الخليفة بالسؤال عن حقيقة ما جرى بيننا نحن الأصدقاء الثلاثة!!!

فعرفت ... أنه قد « نُميَ الخبر إلى المأمون » ...

ولم أجد بداً من أن أسرد القضية كما حدثت . .

فسُرَّ الخليفة لهذه الأخوة الكريمة التي تربط بيننـــا ... وانشرح صدراً لما بدر منا،من فضائل الأعمال التي دعت إليها الشريعة الاسلامية الغراء ...

«وأمر المأمون لنا ـ نحن الثلاثة ـ بسبعة آلاف دينار[1]..

---

(١) الدينار يقابل ليرة ذهبية تقريباً.

لكل واحد ألفا دينار ... وللمرأة ألف دينار ، مكافأة منه على ما بدر منا من إيثار ، وعلى ما بدر من زوجي من عون لي على فعل الخير !!

وحملت نصيب كل من صاحبيّ إلى منزله ... ليعاجل في شراء ما يحتاج إليه ، من أمتعة وألوان طعام ...

وبتنا ليلتنا ... على تكبيرات العيد ، التي ارتفعت من كل حدب وصوب .. وقد شعر كل منا ... أنه يعيش في عيدين اثنين ، لا عيد واحد ...

عيد يشاركه فيه جميع إخوانه المسلمين ...

وعيد يشاركه فيه أخوان اثنان فقط ، من بين سائر الناس ...

وكانت فرحتنا بالعيد الثاني ... أعظم وأشد من فرحتنا بالعيد الأول !! لأننا بهذا العمل الطيب ... أتينا على المعنى الحقيقي للعيد ...

وهل العيد إلا فرحة بالسعادة التي تغمر المسلمين جميعاً في أرجاء الأرض ؟!

وهل العيد إلا أن يحسّ المسلم بسعادة أخيه المسلم ؟!

وأنى للمؤمن أن يعيش فرحة العيد ... إذا كان أخوه في ضنك وشدة ؟!

وكيف يرضى لأولاده ... أن يرتدوا أجمل الثياب ... إذا كان أولاد أخيه لا يجدون من ذلك شيئاً ؟!

كيف يرضى أن يمتلىء منزله بألوان الحلوى وأطايب الطعام... وجاره لا يكاد يجد ما يقوم بأود نفسه وعياله ؟! في حين أن النبي المصطفى ﷺ يقول : (ما آمن بي ساعة من نهار من أمسى شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم) !!

وهل يرضى أحدنا أن يتجرد من الإيمان ؟؟

ليس العيد في الحقيقة إلا سعادة نفسية ... ولن تكون نفس المؤمن سعيدة ... إلا إذا قامت بما يرضي ربها ... ويكسبها الإيمان الغالي ... ولو كان ذلك على حساب مصلحته المادية الدنيوية .

ولا بد من التغلب على شهوات النفس الأمارة بالسوء ... للوصول إلى مرتبة الإيثار ... أن يؤثر الإنسان أخاه على نفسه ولو كان به حاجة ماسة ...

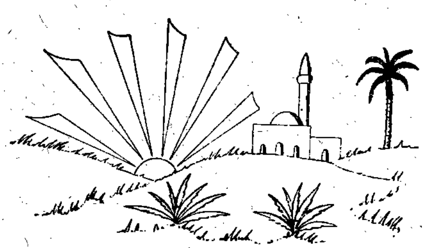
وإن هذا لن يكون إلا بالإيمان ، والايمان وحده ... ولذلك فإن الله تعالى وصف المؤمنين بقوله جل من قائل :

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[1] .

ورحت ألهج بالحمد لله ... على أن أعاننا في هذا الامتحان الذي تعرّضنا له نحن الثلاثة ...

كما رحت أشكر له ــ جل وعلا ــ أن جعل لي من زوجي خير معين على ما يرضيه ...

وعلى غير شعور مني وجدتني التجىء إليه سبحانه أدعوه ، وأسأله جل وعلا أن يلهمنا الثبات على درب السداد والرشاد ... درب التقوى والطاعة ... درب الايمان الحقيقي ... إنه على ما يشاء قدير !!



(١) « سورة الحشر » الآية ــ ٩ .

رجال أم غثاء سيل

إنه لا يعرف الكلال ولا الملل ... يعمل ليل نهار ... لا يكاد ينتهي من النظر في أمور الناس حتى يلتفت إلى عبادة ربه والتبتل إليه ...

وأنى للملل أن يتسرب إلى نفس الشيخ عبد القادر ... ذلك الشيخ الجليل الطموح ، الذي عرف بالتقوى والصلاح ؟! ولقد آلى على نفسه أن يعود بمجتمعه إلى ما كان عليه أجدادهم من تقوى وصلاح ..يوم أن كانوا ملوك الأرض وسادة الدنيا ؟؟

لقد جلس ذات يوم وحيداً في خلوته ، يفكر في أمر مجتمعه ... في أسباب تأخره وابتعاده عن الدين ، فقال يخاطب نفسه :

ـ ترى ما السبب في ذلك ؟؟ أتراه يعود إلى عجز في

الاسلام عن تلبية حاجات المجتمع ، والنهوض به إلى الأوج ؟؟

– لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً فالاسلام كان له الفضل في نهضة هذه الأمة من كبوتها ، بعد أن كانت في الدرك الأسفل!!

– إذن ما السبب ؟؟ لماذا ينتشر الكذب والغش والخداع والغيبة وما الى ذلك من المخاطر التي تهدد كيان المجتمع الاسلامي من أساسه ؟؟

– إن الناس لا يزالون يصلون ويصومون ، ويقومون بجميع الأمور التعبدية ... غير أن المعاملة السليمة ، ومراقبة الله في جميع تصرفاتهم ، هي التي فُقدت !!

– إذن ... لا بد إلا أن يكون السبب هو جهل هؤلاء المسلمين لمرامي الدين البعيدة ، على الرغم من تمسكهم بالصلاة والصيام وما إلى ذلك من الأمور التعبدية !!

– إن هذا يقود إلى تقرير حقيقة لا مراء فيها ... إن الدعوة إلى الله ينبغي أن تبدأ أولاً في صفوف هؤلاء المسلمين الذين جهلوا إسلامهم ، قبل دعوة البعيدين عن الإسلام ... ذلك أن جل أولئك الذين يدّعون الإسلام يظنون أن الإسلام يتأتّى إليهم عن طريق الوراثة ... فآباؤهم وأجدادهم مسلمون ، ولذلك فإنهم ولدوا مسلمين !! وغاب عنهم أن حقيقة الإسلام

لا تكون بالوراثة ، كما لا يمكن أن تكون بالادعاء أو التشهي...

– إذا لم يكن الإسلام بالادعاء أو الوراثة ، فكيف يكون ؟ وما حقيقته ؟

– لقد بين ذلك الرسول المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام في قوله : (الإسلام أن تسلم وجهك لله ، وتخلي له قلبك)[1] .

لقد استوحى الشيخ عبد القادر من هذا الحديث النبوي أن الدعوة إلى الله وإحياء الاسلام في صفوف المسلمين أو بالأحرى في صفوف مدعي الإسلام ، لا يمكن أن تتم إلا بتحقيق أمرين اثنين معاً :

أولهما هو أن يُسْلم المسلم وجهه لله ... أي ان يُسلم قياده لله ؛ فينقاد لأمر الله فلا يعصيه أبداً في سرّ أو علن ... ولا يخالف له أمراً صغيراً كان أو كبيراً ... قد تحقق فيه معنى العبودية الكاملة لله ، فهو لا يجرؤ على مخالفة أوامره أو إتيان مناهيه .. لا ينقاد لأهواء نفسه ووسوسات شيطانه .. ، لا يبالي بكلام الناس وانتقاداتهم .. يقف في وجه التيار ، أي تيار كان مادام

(١) روى البيهقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : ما الإسلام فقال : (تسلم قلبك لله ، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك) .

يشعر أنه يحمل ذلك الشعار النفيس ، شعار الاسلام ، شعار الانقياد لله !!

وثاني ذينك الأمرين اللذين استوحاهما الشيخ الجليل من الحديث النبوي ، ورأى ضرورة تقيد المسلم بهما هو أن يخلي المسلم قلبه لله ... ان يطهر قلبه من الميل إلى ما سوى الله ... إن يخرج من قلبه حب الدنيا وشهواتها وجميع الأهواء ، حتى لا يبقى تعلق لقلبه إلا بالله !! الأمر الذي لا يمكن أن يتم إلا بذكر الله الذكر القلبي الخالص ... الذكر الذي تنصرف فيه جميع ملكات الانسان الروحية والنفسية إلى بارئها ؛ فتترك كل ما يشغلها عن ربها ، لتشعر أنها وقفت بين يدي فاطر السماوات والأرض ... هذا الذكر الذي يكون جلاء لما يعتري القلب من صدأ الغفلة عن الله ، ومبدداً لظلمة الذنوب التي يقترفها الانسان على غير شعور منه ؛ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : (إن لكل شيء صقالة ، وإن صقالة القلوب ذكر الله ، ومامن شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله) [١] .

ورأى الشيخ الجليل أن هذا الذكر القلبي ، إذا ما داوم عليه العبد ، يصير ملكة في النفس ، تؤهله لأن يكون ممن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا عن « عبد الله بن عمرو » .

وصفهم الله تعالى في قوله : « **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** »[1] ... وكيف لا يكون ذلك ، وقد أمر الله تعالى المسلم بالذكر فقال جل شأنه : « **واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول** »[2] بل جعل الصلاة وسيلة لذكر الله فقال جل من قائل : « **وأقم الصلاة لذكري** »[3]

وليس هناك من شيء يساعد المسلم على تحقيق معنى الاسلام الحقيقي في نفسه ، ويعينه على التمسك بأوامر الله واجتناب نواهيه ، كالذكر القلبي ... ذلك ان القلب متى تنور بذكر الله ، وتفتحت بصيرته[4] ، نمت فيه المراقبة لله والخشية منه ، فلا يستطيع ان يجرؤ على معصية في امر او نهي ... وأنى لمثل هذا القلب الذاكر ان يعصي ربه ، وهو يشعر انه في معية الله « **وهو معكم أينما كنتم** »[5] ، قد تفتحت بصيرته ، فعرف الحقيقة على وجه اليقين ، فصارت خشيته لله في مقام الشهود (وهل راءٍ كمن سمع ؟) .

---

(١) « سورة النور » : الآية - ٣٧ - .

(٢) « سورة الأعراف » : الآية - ٢٠٥ - .

(٣) « سورة طه » : الآية - ١٤ - .

(٤) قال تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

(٥) « سورة الحديد » الآية - ٤ - .

إنه المؤمن الذي وصل إلى مقام الاحسان الذي عرّفه المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله : (الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك)[1] فصار يعبد الله كأنه يرى الله !!

• • •

وانطلاقاً من هذا المفهوم العميق للاسلام الذي يلتقي فيه تيار القلب مع تيار الفكر ، هبّ الشيخ الجليل عبد القادر يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .. ودخل الناس في مدرسته التربوية ، يتلقون فيها محاضراته الرائعة ودروسه العامة ، كما يهذبون نفوسهم ، ويصقلون أرواحهم في مجالس الذكر ، يركنون فيها إلى قلوبهم وهي تذكر الله ؛ فتسمو نفوسهم إلى مايؤهلها للدخول في معترك السباق إلى أعلى مدارج الإيمان ..

وازداد إقبال الناس على الشيخ وتمسكهم به .

ودخل الكثيرون مدرسته التربوية فيما يسمى بـ (الطريقة) فانتشر ذكره ، وذاع صيته حتى طبق الآفاق .

• • •

وتحركت نوازع الحسد لدى بعض ذوي النفوس الضعيفة ..

---

(١) متفق عليه .

وسارع الشيطان يؤجج نيران الخلافات المصطنعة لدى بعض أصحاب المصالح والمنافع ..

والتقت مصالح هؤلاء وأهواء أولئك ، مع أهداف ومرامي البعيدين عن الدين العاملين على التخلص من قيوده و (مضايقاته) !!

فتكاتفت الجهود على الإيقاع بالشيخ عبد القادر .. ولا ذنب له إلا أنه مؤمن عامل .. قد عاهد ربه على الدعوة إلى الله .. دعوة صحيحة سليمة ، خالية من البدع والأهواء .. دعوة تعتمد العقل والقلب في آن واحد !!

ونظروا في الأمر ملياً ..

وبدؤوا العمل على صعيدين اثنين لتحقيق تلك الغاية .

أولهما على المستوى الشعبي .. وثانيهما على المستوى الرسمي ..

ــ **فعلى المستوى الشعبي** : استهدفوا صرف الناس من حول الشيخ ، بعد أن أكل قلوبهم الحسد ، لالتفاف الناس حوله .. فعمدوا إلى **ترويج الأشاعات والأكاذيب التي يختلقونها اختلاقاً** في غيبة من الضمير ، وبعد عن خشية الله والخوف منه ... ينشرون تلك الترّهات والتفاهات بين عامة الناس الذين يسارعون إلى التصديق بكل مايسمعون ، وكأنهم لم يسمعوا من قبل قول الله عز وجل : « **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ**

فتبينوا ، أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين»[1].

- **وعلى المستوى الرسمي** : استهدفوا الإيقاع به لدى الخليفة بغية التخلص من وجوده نهائياً ... فعمدوا إلى **دس الدسائس وحبك المؤامرات** .. وخيلوا للخليفة أن هذا الشيخ أصبح خطراً على مركزه بعد أن التف حوله الناس وتعلقوا به .

● ● ●

وتلاقى حرص الخليفة على عرشه مع أهواء ومصالح المغرضين .. فاستبدّبه الغضب .. وأنشأ يقول مخاطباً أولئك الدساسين :

- حقاً .. إن قلبي يحدثني منذ أمد .. أن تفاني ذلك الشيخ في خدمة الدين وجمعه الجموع من الناس ليس إلا ستاراً يخفي وراءه أطماعاً وأهواءً .

تباً لهذا القلب الطيب الذي يخدع بمنظر أولئك الذين يذرفون دموع التماسيح حزنا على هذا الدين وتحرقا عليه !!

لقد تبين لي وجه الحقيقة بيضاء ناصعة بعد أن غامت عني حينا من الدهر .. إنه مامن إنسان يتحرك إلا وهناك سبب يخفيه في نفسه !!

وتطاير الشرر من عيني الخليفة ، واصطكت أسنانه وهو يقول :

---

(١) « سورة الحجرات » : الآية - ٦ -

ويل للانسان إذا ماوقف عاريا ، ليس هناك مايتستروراءه!

وشعر أحد أولئك المغرضين أن الوقت صار مناسبا ، ليلقي صنارته في الماء العكر ، فيصطاد في الوقت المناسب ، فقال :

ـ هل يأذن لي سيدي ؟؟

ـ تكلم .. هات ماعندك .

ـ لقد نطقتم ياسيدي بالدرر الثمينة .. لقد ولى الزمان الذي يعمل فيه الناس خدمة للدين ، وغيرة على الإسلام . وأصبحنا في آخر الزمان ، والعياذ بالله !!

وانطلق آخر يقول بعد أن استأذن الخليفة :

ـ يامولاي .. إن الأمر لايتحمل التهاون والتاهل بعد الذي بدر من هذا الشيخ .. ولئن أخذتموه طويلا بما عهد عنكم من حلم وإحسان ، فإنه قد آن الأوان، لتأخذوه بالعدل وتجازوه على ما اقترفت يداه، بعد أن لم ينفع معه كرم الأخلاق !!

قال الشاعر :

ووضع الندى في موضع السيف في العلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

ـ الأول : أجل ياسيدي .. لم يبق أمامنا مجال للتراخي..

ورحم الله « زهير بن أبي سُلمى » حين قال :

ومن لايذد عن حوضه بسلاحه   يهدَّم، ومن لايظلم الناس يُظلَمَ

ــ الخليفة : لقد وقع هذا الطماع في شر أعماله ..

وضرب الخليفة بيده على متَّكأ كان أمامه ثم صاح يقول :

لآمرنَّ قاضي القضاة فليحا كمنه . . وسأوصيه بأن يأخذه بشيء من الشدة . .

ــ الأول : يامولاي .. طيب قلبكم . . قلبكم الطيب هو الذي جعل أمثال هذا .. يطمع بكم .. إن حلمكم وطيب معاملتكم هما اللذان جعلا الناس يغترون بكم ..

ــ آخر : إن أمثالُ هذا الإنسان يجب أن يوقَع بهم القصاص العادل قبل أن يفلت زمام الأمر من بين ايديكم ..

ــ الخليفة : وكيف تفلت الأمور من أيدينا ؟!

ــ الأول : أما رأيتم الناس قد التفوا من حول هذا الشيخ إنه لايقول أمراً إلا وساروا به، وكأنما ذلك قرآن منزل !!

ــ الخليفة : وكيف تخرج الرعية على إرادتنا ، ونحن نسير بين الناس بالعدل ونعاملهم بالرأفة والرحمة ؟؟

ــ الآخر : العدل .. الرأفة .. الرحمة .. هذه الأمور هي التي جعلت الناس يتطاولون، فتتحدث بعض النفوس بما تجرأت عليه نفس هذا الشيخ المتظاهر بالغيرة على الدين !!

ـ الأول : إن القلب الطيب الذي يتمتع به مولانا لربما لم يجد من يقابله بشيء من ذلك إذا ما تغيرت الظروف .

واشتد الغضب بالخليفة فقال :

ـ إذن ما العمل في رأيكما ؟؟ كيف تريدان أن نعامله ؟

ـ الأول : بالعدل يا سيدي .

ـ الآخر : أجل بالعدل .. لا تجشموا أنفسكم غير العدل... ولكن شريطة أن يكون ذلك على أسرع ما يمكن . . خشية أن تفلت الأمور من أيديكم !! أليس كذلك ؟!

ـ الخليفة : حسن ... حسن ... سأتولى محاكمته بنفسي... ووالله لن أتردد في إعدامه في الحال إذا ماتبين لي خبث طويته...

ووجم الرجلان ، لا يدريان بماذا يجيبان الخليفة ، وهما لا يجرؤان على الإفصاح عما في نفسيهما من رغبة في صرفه عن محاكمته إلى إنزال العقاب دونما محاكمة ..

ولما أبطأ عليه الجواب قال :

ـ ما بالكما لا تجيبان ؟؟ ما رأيكما في ذلك ؟؟

ـ الأول : يا مولاي ... إنكم تجشمون نفسكم من الارهاق والعنت ما لستم بحاجة إليه ... إن ذنبه واضح لكل ذي عينين...

والناس كلهم يتحدثون بذلك ... إنهم جميعاً يتوقعون الساعة المرتقبة بين آونة وأخرى ... فهل تريدون أكثر من ذلك دليلاً،حتى يحتاج الأمر إلى محاكمة أو قضاء وما إلى ذلك من الأمور التي ما أُعدت لساعة الخطر ؟!

ـ الآخر : إن الأمر لواضح يا سيدي ... وإن ذنب هذا الشيخ المرائي يعرفه القاصي والداني ... حتى إنه لقد بات الناس يرهبونه ويرجون رضاه أكثر مما يخشون الخليفة أو يرجونه... وكأنما انقلب السلطان والحكم من يد إلى يد ...

● ● ●

وسادت فترة من الصمت ، كان خلالها الخليفة نهباً لصراع نفسي عنيف ...

ولم يلبث أن انجلى الموقف ... وطغت رغبة الخليفة في الملك على عقله ورويّته ، فاعتلت أمارات الغضب وجهه،وظهرت الحدة على نبرات صوته،وهو يقول :

ـ لآخذن هذا الشيخ بجريرة أعماله ...

وبعد أن أجال بصره في السماء،يتفحص مواطن النجوم، ليعرف الوقت الذي مضى من الليل ، قال :

ـ لقد مضى الآن الجزء الأول من الليل ... وليس من

المستحسن ان نأتي به في هذا الوقت المتأخر من الليل؛ لئلا يحس بالأمر احد اثناء صلاة الصبح ... سنأتي به غداً في الصباح، من غير أن يشعر بذلك مخلوق ... ثم سيلقى مصرعه أمامي ... جزاء ما اقترفت يداه !!

وضرب الخليفة يداً بيد ... فحضر الخدم ..

ـ أمر مولاي ؟

ـ ليحضر صاحب الشرطة فوراً . .

وانصرف الخدم، ليقوموا بتنفيذ أمر الخليفة، الذي التفت إلى من عنده، يتابع حديثه معهم قائلاً :

ـ غداً .. إذا ما أسفر الصبح ... سترون ما أنا فاعل به ...

بارك الله بكما من رجلين مخلصين، أستطيع الاعتماد عليهما ...

والآن .. ليس عليكما إلا أن تذهبا آمنين مطمئنين ... على أن تعودا في صباح الغد ؛ لتشهدا مصرع ذاك المخادع !!

وامتثل الرجلان لأمر الخليفة . . فاستأذنا بالانصراف ، وهما غير راغبين في ذلك ...

وخرجا من قصر الخليفة وهما لايكادان يحسنان المسير ... وكأنهما يريدان أن يقفزا قفزاً لشدة مابهما من فرح . .

وفي الطريق كنت تراهما يتحاوران ، وقد اعتلت البهجة وجهيهما ...

حتى إن حديثهما كان يُفهم عن بعد ...

ـ لقد تحقق المراد ... وغداً سيتم التخلص من هذا المنافس العتيد ...

ـ إن ضربة سيف واحدة ستريحنا من خصم لدود ...

ـ ما أحدّ سيف اللسان إذا ما استطاع الإنسان أن يحكم استعماله !!

وايم الحق إنه يستطيع أن يفعل ما يعجز عنه الحسام المهند !!

ـ ما الذي يضيرنا أن نتظاهر بين الناس بالحزن والأسى على ما آل إليه هذا الشيخ المسكين ؟!

ـ صحيح والله ... إننا بذلك سنكسب عطف الجماهير ... وسنتقاسم تركته ، بعد أن ندع الدرهم والدينار لأولاده المساكين !!

ـ ما شأننا وما عنده من دراهم ودنانير ؟! المهم أننا نجحنا في التخلص من خصم لدود !!

ـ وستغدو الساحة فارغة ... فليس علينا إلا أن نحسن استغلال الموقف !!

ـ غداً ... سيخرّ ملك طالما تربع على عرش القلوب !!

ـ وهل نستطيع أن نرث شيئاً من هذا المُلك ، فنملك شيئاً من تلك القلوب ؟!

ـ المهم أننا سنتخلص منه ... ولا يعنينا غير ذلك ...

واستغرق الرجلان في حوارهما الطويل، الذي كان الفرح العميم يجدد زيته، كلما أشرف وقوده على الانتهاء ...

إنهما يسيران في الطرقات آناء الليل . . لا يكاد أحدهما يستطيع فراق الآخر .. فالفرح قد أخذ منهما كل مأخذ ... ولن يجد النوم إلى عيونهما سبيلاً ...

وفي وسط الظلام الحالك ، كنت تستطيع أن تميز صوت الأول منهما وهو يقول :

ـ لله نذر عليّ ، إن تم الأمر ، أن أتصدق غداً بمئة رغيف من الخبز !!

وبشيء من الهزء أجابه الآخر بقوله :

ـ وماذا سيفعل الله بمئة من الأرغفـــة ، ويداك ملطختان بدم بريء ؟!

وانفعل الأول يقول :

ـ يداي ملطختان ؟؟ بل يداك هما الملطختان ... أنت الذي دفعتني إلى هذا ...

ـ بل أنت الذي كان الحسد يأكل قلبك ...

ـ لا والله ... بل أنت الذي أعمتك الأهواء والمطامع ... إنك رجل زنديق تروم الكيد للإسلام ،بالكيد لرجالاته العاملين ... توقع بهم الواحد إثر الآخر ...

وما كاد الخصام يبلغ أوجه ،بحيث يهدد المصالح المشتركة ، حتى عاد الرجلان إلى الاتفـــاق ... واعتدلت لهجة الخطاب في الحوار :

ـ مالنا نسير في هذا الخصام ، يتهم كل منا الآخر في دم ذلك الرجل ؛ فنعرّض نفسينا للخطر الداهم ؟؟. إن الخطر بوجود ذلك الشيخ ما زال جاثماً على صدر كل منا ... المهم هو أن نتخلص من وجوده ...

ـ أجل ... ما علاقتنا نحن بدمه ؟؟ الخليفة هو الذي سيقتله، خوفاً على عرشه !!

ـ بل إنه هو الذي قتل نفسه ،حين نازع الخليفة سلطانه !!

واستمر الرجلان آناء الليل ، يسبّحان في أحلام اليقظـــة ،

يجتران الآمال الحلوة التي يتوقعانها ... حتى لم يبق للصبح إلا القليل !!

* * *

وصدح صوت المؤذن يمزق حجب السكون مذكراً بالله ، مسترحماً . . يقول : **يا أرحم الراحمين ارحمنا ...**

وخرج الناس من منازلهم يؤمون بيت الله استعداداً لصلاة الصبح من قبل أن يؤذن الصبح ...

وأسرع الرجلان إلى المسجد ... يتظاهران بالحرص على العبادة والتقوى ...

ومكثا قريباً من مجلس الشيخ عبد القادر ، يريدان أن يشفيا غليل نفسيهما قبل أن يأويا إلى منزلهما ... وكأن سبباً مبهماً من أسباب الخوف كان يتحرك في نفس كل منهما ...

وترقبا الحوادث ... يخفق قلباهما لكل حركة أو همسة ...

ولكن أمارات الخيبة تعلو وجهيهما ... إن شيئاً ما لم يحدث للشيخ ...

لقد أقيمت الصلاة ... وصلى الناس ... والتفوا من حول الشيخ كالعادة ... درس ينير الأفكار ... وذكر لله يجلو القلوب ... فتنشرح الصدور ... صدور غير أولي الحقد والأغراض الرخيصة ...

وبدأ القلق يساور نفسيهما ... يحاول كل منهما أن يخفي قلقه عن زميله ترقباً لأمل لم ينقطع بعد ...

وانتهى الدرس ومجلس الذكر ...

وانصرف الشيخ إلى منزله ...

وسار الرجلان خلفه من بعيد، بحيث يرقبانه ولا يراهما ...

• • •

ولم يكد أحدهما يفضي إلى زميله ما في نفسه من مخاوف، حتى وجد أن الآخر قد وقع في المحنة نفسها !!

إنهما يتوقعان أن يكون الخليفة قد غير رأيه في الشيخ ... ولربما قرر أن يدفع به إلى قاضي القضاة ليحاكمه ... عندئذ — ويا للطامة الكبرى — سيتبين للخليفة زيف ادعاءاتهما ...

وأقبل كل منهما على زميله يلومه لوماً شديداً ...

وأدركا أنه لا فائدة من التلاوم ... فكلاهما مشتركان في الذنب ؛ فليس عليهما إلا أن يجدا وسيلة للخلاص مما أوقعا نفسيهما فيه ...

وأسرع الرجلان وراء الشيخ، يريدان أن ينادياه، قبل أن يدخل منزله ... ليعترفا له بالحقيقة ... ويفضيا إليه بما كان منهما ... ويلتمسا منه الصفح ...

غير أنهما وجدا صاحب الشرطة يقترب من الشيخ ... فتريثا قليلًا واستترا وراء أحد المنازل ..

ـ يا الله ... إنه صاحب الشرطة!!

ـ ترى ماذا يريد منه ؟؟

ـ هل أتى ليخبره بما كان منا ويسأله عن الحقيقة ؟؟

ـ يا للمصيبة !! قاتلك الله فانك نذير شؤم !! ما سرت معك في أمر إلا كانت عاقبته سوءاً .

ـ تمهل قليلًا يا رجل ... فلربما كان الأمر على غير ما تظن ...

ـ وماذا سيكون غير ذلك ... إنك أنت السبب ... إنك أنت الشيطان الذي يوسوس للانسان ويزين له سوء عمله ، حتى إذا ما وقع في المعاصي تبرأ منه ، وقال : **« إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ،وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم »** (١)

ـ اخفض صوتك أيها الرجل ... إنهما يعودان .

ـ يبدو ان صاحب الشرطة قد طلب من الشيخ ان يرافقه .

---

(١) « سورة إبراهيم » : الآية ـ ٢٢ـ .

– إلى أين ؟

– لا أدري !!

– انظر إليه . . إنه يخاطب الشيخ بلغة مهذبة رقيقة !!

– سنلحق بهما لننظر،إن كان إلى الخليفـــة ،فإنها البشرى المفرحـة . . . وإن كان الى قاضي القضاة،فانها الطامة الكبرى .

– وهل سيكون منك خير ؟؟ لطالما جربتُ صحبتك !!

– تمهّل حتى نرى النتيجة .

وتابـع الرجلان المسير . . .أبصارهما تترقب . . . قلباهما واجفان . . . لحظات ويتقرر مصيرهما . . إما إلى نجاح وإما إلى شـقاء . . .

إنهما لا يكادان يجدان صبراً لحين وصول الشيخ ومن معـه الى ناصية الشارع حيث مفترق الطرق !!

● ● ●

وما كاد صاحب الشرطة يتجه مع الشيخ الى ناحية اليمين ، حيث يسير في الطريق الموصلة الى باب القصر ، حتى تبددت من أفقها سحب الخوف . . . واستبد بهما الفرح وانطلق احدهما يقبّل زميله ثم يقول :

– يا إلهي إنه يسير باتجاه قصر الخليفة !!

ـ صحيح والله ..إنهما يسيران باتجاه القصر !! ألم أقل لك ؟ إنه كان عليك ان تتريث قليلا قبل ان تحكم على صحبتي بالفشل !

ـ يالك من ذكي فطن ! حقـاً إنـك لتعرف من أين تؤكل الكتف !!

وبعد أن اطمأن قلب كل منهما،قال أحدهما للآخر :

ـ لنعد الآن الى منازلنا ... ولتهنأ عينك بالنوم ياعزيزي

ـ هيا بنا ... فلقد اخذ منا التعب كل مأخذ !!

واستدار الرجلان يريدان العودة إلى المنزل ... غير أن الأخير استدرك يقول :

ـ ولكن لماذا لم يأخذه صاحب الشرطة بالعنف ؟

ـ يا لك من مغفل !! أو نسيت أن للشيخ أتباعاً يبلغون الألوف ، كلهـم يفدونه بالغـالي والرخيص ؟ أم إنـك تظن ان الخليفه مغـفل مثلك، بحيث يرسـل صاحب شرطته، ليلقي عليه القبض أمام الناس،فيثيرهم عليه !! أما رايته يبيّت له الأمر ، ويأبى ان يطلبه في الليل حتى لا يظن به الناس، فتفلت الأمور من يده !!

ـ رائع .. رائع ... يا لك من رجل ذكي !!

● ● ●

وفي مفترق الطرق ... ودع أحدهما الآخر ..

وانصرف كل منهما الى منزله ... يبغي فراشه،ليأخذ قسطاً من الراحة في نوم هادىء،وهو قرير العين هانيها ... بعد إذ وضع قدمَ الشيخِ عبد القادر على شفا جرف هار ... لا يبالي أي نوع من أنواع الموت سيواجهه !!!

● ● ●

وذهب الشيخ مع صاحب الشرطة إلى الخليفة الذي لم يجد النوم إلى عينيه سبيلاً . . إذ أنه لم يكد الرجلان ينهبان من عنده ، ولم يكد يأوي إلى فراشه ، حتى تتالت الأفكار على ذهنه ... وكأنها سيل من الآراء المتباينة ، كلٌ منها تصادم الأخرى ...

وجاشت الأفكار في ذهنه ... وغلت الأهواء في صدره كالماء في المرجل .. حتى كادت تحطمه خلال الليل ...

إنه وحيد لا يجد معيناً ولا نصيراً ...

وذهبت الهواجس تراود مخيلته ... فيتصارع هواه مع ضميره الحي ، كلٌّ منها يسيطر على لسانه لحظة ، لايلبث بعدها أن يحل محله خصمه :

ـ ماذا أفعل ؟؟

ـ سأقتله وأتخلص من هذا الذي ينازعني ملكي ...

ـ ماذا ستقول لربك غداً عندما تقف بين يديه ؟؟

ـ إن لم أقتله قتلني ...

ـ وما الدليل على ذلك،سوى كلمات قالها أشخاص لربما كانوا مغرضين ؟!

ـ بل إنه تبدى لي صدقهما ... إنهما جدّ غيورين عليّ ... إنهما يحبانني ويحرصان على مصلحتي !!

ـ ماذا ستقول لدمه غداً،إن جاء ليقاضيك ، أمام محكمة قاضيها رب العالمين ، حيث لا ينفعك ملكك ولا عظمتك ؟؟

غداً ستقف بين يدي رب العالمين موثق اليدين ... لايفكك إلا عدلك !!

ـ إنه ليتراءى لي أنه قد جمع الجموع ليفتك بي ... فهل أتركه حتى يفعل فعلته ؟؟ عندئذ لن ينجيني ندمي ... ولن ينفعني قلبي الطيب !!

ـ وإذا تبين غداً أنه على غير ذلك ... فهل ستفلت من بين يدي مالك يوم الدين ؟؟

ـ إذن لماذا يجمع هو هؤلاء الناس ويجتنبهم ؟؟

ـ إنه لسؤال محيّر ... يحتمل عدة أسباب ... ولكن لا يجوز لنا أن نجزم بأحدها من غير بينة ...

لنأت به إلى هنا ولنسأله عن ذلك ...

– ولكن لربما تعرضتُ للخطر إن أنا ماطلت في الإيقـــاع به ... فأتباعه كثر ... ولربما كان منهم أمر مروّع !!

– يمكنني أن أسأله سؤالاً واحداً يفصل بين الأمرين ... ولا حاجة بي إلى المماطلة !! سأطرح عليه هذا السؤال غداً عندما يأتي به صاحب الشرطة ...

فلقد أمرت صاحب الشرطة أن يأتي به صباح الغد من غير أن يشعر به أحد ... يدعه حتى يصلي بالناس ... ويلقي عليهم مواعظه ... ثم يسحبه من بيته بأسلوب لطيف ... ويأتي به اليّ ... والناس يظنون أنه ينام نومة الضحى ...

وهاهوذا السياف ينام قريباً مني بانتظار الأمر ... وقد هيأ السيف والنطع ...

ولكن ... لا ... لن آمره الا بعد أن أطرح السؤال على الشيخ ...

● ● ●

وارتاحت نفس الخليفة لهذا الرأي، الذي توصل إليه بعد أن قضى ساعات، يتقلب خلالها على فراشه، من غير ان يداعب الكرى اجفانه ...

وحال أذان الصبح دون أن يجد شيئاً من النوم ...

فنهض من فراشه ... يتوضأ ويصلي .

ثم جلس ليتلو شيئاً من الأوراد وآيات الذكر الحكيم ...

وكان أن استوقفته الآية الكريمة : **« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ؛ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »**[1] .

فتوقف عن التلاوة ... يتأمل معناها ... يعيدها ويفكر فيها ...

ـ كيف أتجرأ على الاعتداء على هذا الرجل قبل أن أعرف الحقيقة ؟؟

ـ لئن كان قد اجتذب قلوب الناس بإخلاصه، فهل يصح أن يكون ذلك سبباً لحقدي عليه والايقاع به ؟؟

ـ ماذا سأقول غداً إذا ما رأيتني بين يدي الله يسائلني بقوله ، جل من قائل : ألم تتل قولي في القرآن الكريم **« اعدلوا هو أقرب للتقوى »**[1] .

ـ أين أنا من العدل إن قتلت رجلاً يقول ربي الله ... بل يدعو إلى الله ؟؟

---

(١) « سورة المائدة » : الآية ـ ٩ ـ .

– أين أنا من العدل إن أنا اعتديت على رجل غرس الإيمان في نفوس هؤلاء الناس فتعشقوه واتبعوه ؟؟ !

– وماذنب هذا الانسان إن هو أتى بالحقيقة التي تتعشقها النفوس ... فأحبه الناس ... والتفوا حوله ؟؟

وألحت الأسئلة تترى على ذهن الخليفة ، كأنما هي سيل جارف .

فانهمرت من عينه دمعة سخينة بللت المصحف الذي أمامه ... فنهض يكفكف دموعه ... بعد أن قطع على نفسه عهداً بأن يسير بين الناس بالعدل والتقوى ...

● ● ●

ودخل الحاجب عليه يقول :

– صاحب الشرطة بالباب ومعه الشيخ عبد القادر ...

– ائذن لهما بالدخول ...

ولم يكد يرى الشيخ ويباحثه في بعض الأمور ، حتى وجد أن كل تلك المخاوف التي ترددت في نفسه ليست في محلها ...

فالشيخ يبدو عليه التقى والورع ...

بل يبدو عليه التواضع والبعد عن الأهواء والمطامع ...

ولذلك لم يجد في نفسه دافعاً لاتهامه ومحاكمته !!

غير أن آثار مخاوفه من الشيخ لم تمَّحِ من نفسه إلا عندما اطلع في أثناء الحديث ، على أن هذا الشيخ لم يخطر في باله شيء مما أودعه في نفسه ذانك المفسدان !!

لقد رآه رجلًا لا يعرف إلا الدعوة إلى الله ... لإصلاح النفوس ... وإصلاح المجتمع كله من وراء إصلاح الأفراد ... شعاره في ذلك قوله تعالى **« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »**[1] .

● ● ●

ولما اطمأنت نفس الخليفة إلى الشيخ ، ذهب يسأله عن سبب تحشيده الناس من حوله ...

فأجابه الشيخ :

ـ لا تغرنك هذه الكثرة الكاثرة من الناس ... فإن الكثرة غثاء كغثاء السيل .. إن « العالم الرباني » وداعية الحق ، طبيب يأتيه المرضى من كل نوع ، فيداويهم ويحسم فيهم مادة الدواء ، ويريهم طريق الشفاء ، ويتوجه بهم إلى الله تعالى »[2] .

---

(١) « سورة النحل » الآية ـ ١٢٥ ـ .

(٢) « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » لأبي الحسن الندوي : صفحة ـ ٢٧٣ ـ .

ــ كيف يكون ذلك ... وهم يحبونك أكثر من أهليهم وأنفسهم ؟؟

ــ لا تدع المظاهر تأخذك ... إنها عواطف جامحة ... لا تلبث أن تزول عند الخطر ... بل لا تلبث أن تخمد إذا مامضى عليها فترة من الزمن !!

ــ ولكن ... على الرغم من ذلك ... هناك الكثيرون ممن هم رهن إشارتك ... وعلى استعداد لأن يفدوك بالغالي والرخيص ...

ــ إن مظهر الناس خداع ... وقلما رأى إنسان الحقيقة عارية ...

وإن شئت أعلمتك بأنه لا يوجد عندي ، ممن أستطيع الاعتماد عليهم إلا رجل ونصف فقط !!

ــ كيف ؟؟ إنني لا أفهم شيئاً !!

هذه الألوف العديدة من الناس لا يوجد بينها من هو جدير بالاعتماد عليه إلا رجل أو رجل ونصف ؟!

وماذا تقصد بقولك (رجل ونصف) ؟!

فالتفت الشيخ الذي أدرك بثاقب بصره ما سبق أن دار في نفس الخليفة من مخاوف ، وقال :

ـ سأشرح لك هذا الأمر شرحاً واقعياً ملموساً . .

ـ وكيف ذلك ؟!

ـ إذا شئت فليخرج صاحب شرطتك هذا ، وليذع بين الناس أنك ألقيت القبض علي ...

وسترى بنفسك الحقيقة ...

● ● ●

وانتشر الخبر بين الناس ...

ـ الخليفة قبض على الشيخ !!

ـ الشيخ خرج على القانون فأُلقي القبض عليه !!

ـ لقد تبين أن للشيخ أغراضاً سياسية ...

ـ إنه يرمي إلى تحقيق مطامع شخصية ...

ـ لقد كان يتخذ الدين ستاراً يعمل من ورائه !!

واتسعت دائرة الإشاعات باتساع نطاق انتشارها ... حتى بلغت مبلغ النيل من الشيخ !!

وانفتل عنه معظم الناس ... تلك الكثرة الكاثرة من الناس الذين التفوا حوله ، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم .

أما القلة القليلة الناس التي ذاقت شيئاً من حلاوة الإيمان ... القلة المدافعة عن سمعة الشيخ، فقد اضطرت إلى السكوت والتخفي عندما انتشرت إشاعة أخرى مفادها أن السلطة تلقي القبض على أتباع الشيخ ...

كنت ترى الناس يتهامسون ...

ثم يخلعون عمائمهم السوداء التي وضعوها على رأسهم اقتـداء بشيخهم •••

حتى إن الذي كان يصر على عدم رفعها عن رأسه، لا يلبث أن يجد نفسه وحيداً ... فيخشى على روحه ... ويلتمس لنفسه الأعذار ••• ويهرول إلى إحدى زوايا الطريق ، ليخلعها هناك، قبل أن تشير إليه الأصابع، ويقع بين براثن الخطر المحدق !!

وخلال ساعات قليلة تبدل الأمر ... وانقلب التيار !!

فالشائعات التي كان الحساد والمغرضون يسعون دائماً إلى نشرها، بكل ما أوتوا من قوة فيفشلون ... أخذت بالرواج ... وبدأت تجد لها سبيلاً إلى نفوس المؤمنين ... بل إلى نفوس أقرب المقربين إلى الشيخ !!

ووسط هذا الجو المحموم ، قوي مركز أعداء الشيخ ... فعملوا على تنظيم الوفود للمطالبة بإعدامه !!

★ ★ ★

ووصل خبر هذا التغير المفاجىء في تقدير الناس للشيخ ، إلى الملك . . فأخبر به الشيخ ... وقال له :

ــ يبدو أنه لم يبق لك ولا رجل واحد تعتمد عليه !!

وأجاب الشيخ بنفس واثقة مطمئنة قد عرفت من ربّت،وماذا أعدت :

ــ لا ... بل هناك من أعتمد عليه ... انتظر قليلاً ... ألم أقل لك هناك رجل ونصف ؟!

ــ إنني لم أفهم من كلامك شيئاً ...

ــ ستفهم كل شيء،عندما ترى الأمور تجري أمامك ..

ــ أين الرجل ؟ بل أين الرجل والنصف ؟!

ــ إنه في خارج البلد ... وعما قليل سيأتي ... ولسوف تراه بأم عينك ...

وعند ذلك سوف ترى من امتلأ قلبه بالإيمان !!

● ● ●

وما إن انتهى أحد تلامذة الشيخ من عمله في جمع الحطب من الغابة ، حتى عاد يقصد المدينة ...

فرأى وجوهاً غير الوجوه التي تركها ...

ولحظ غمزاً ولمزاً ...

فسأل عن الخبر ...

وجاءه سيل من الشائعات ...

ومن خلال ما سمع عرف ما يهمه ... لقد أدرك أن الشيخ محتجز في قصر الملك ...

فقصد القصر على الفور ... دونما حاجة إلى أي تفكير ... أو إعمال للرأي ... أو مشاورة أو مداولة للآراء ...

اتجه رأساً إلى حيث يقيم الملك ... يحمل بيده فأسه ... غير مبال بالحرس والجند الذين شددوا الحراسة على القصر ... فظنوا أنه أتى لأمر من أمور الخدمة في القصر فلم يمنعوه ...

ومر من بينهم ... لا يبالي بكل مَن أمامه ... وكأنهم جميعاً ذباب، لا يستحق أن يعيره أدنى التفاتة !!

إنه يريد الرأس الكبير ... رأس الخليفة لا غير ...

يريد رأس الذي احتجز شيخه ... من غير أن يفكـر في نتيجة ذلك او عاقبة هذا الأمر ...

وأطل الشيخ من النافذة ... فرأى تلميذه هذا ، يمخر عبابه الجند الذين استدعاهم الخليفة ... غير مبال بكثرتهم ••• وإذا ما اعترضه أحدهم،لم يجده جديراً بأكثر من نظرة شزر ، فيتراجع ذلك الجندي عما عزم عليه ...

واستدعى الشيخ الخليفةَ على عجل ... ليريه منظـــر ذاك الرجل حامل الفأس ، كيف يشق صفوف الجند،وهم لا يعملون على منعه .

وأنشأ الشيخ يحدث الخليفة الحائر بقوله :

ــ هذا هو الرجل الذي أخبرتك عنه •••

هل تراه ؟؟ إنه والله يقصدك أنت •••

إنه لا يبالي بشيء من هذه الدنيا •••

ووالله لو أوصدت دونه الأبواب،لضرب قصرك هذا بفأسه ضربة واحدة،كانت كفيلة بأن تهد أركانه •••

إنه يحمل من سلاح الصدق ما يفلّ كل سلاح •••

إنه يحمل بين جانحيه من الإيمان ما يبدد مخاوف الثقلين !!

فإياك ثم إياك !!

وداخل الهلع نفس الخليفة ... بعد أن رأى بوادر صدق كلام الشيخ ... فاستجار به قائلاً :

– ما العمل أيها الشيخ ؟؟ أنقذني !!

– لا بأس سأتدبر الأمر ...

ونادى الشيخ تلميذه من الشرفة ... وطمأنه على حسن حاله ... ثم أمره بالانصراف إلى عمله ... فعاد لا يلوي على شيء ... ولا يبالي بأحد من الناس ...

والتفت الخليفة إلى الشيخ يقول :

– حقاً ... إنه رجل يستحق أن تعتز به وتعده رجلاً ، في حين خذلتك الألوف المؤلفة من الناس ... بل سار كثير منهم في ركاب المعادين لك ، راضين كانوا أم مكرهين !!!

ولكن الخليفة لا يزال يجد في كلام الشيخ لغزاً آخر لم يفهمه، فسأله عنه بقوله :

– بالله عليك ... خبرني ... ماذا تريد بنصف الرجل عندما قلت : لا يوجد عندي،ممن أستطيع الاعتماد عليهم،الا رجل

ونصف فقط ، لقد عرفنا الرجل ... فماذا تريد بنصف الرجل؟؟

فأشار الشيخ بأصبعه،من خلال النافذة،إلى طرف من أطراف سور القصر،وقال :

ـ انظر إلى ذاك الإنسان البعيد الذي يتحفز ...

إنه يقدم رجلًا ويؤخر أخرى ...

إنه لايستطيع أن يقدم على عمل إلا إذا وجد من يعينه ويساعده ، أو إذا وجد الظرف المواتي ...

ولئن كان إيمان هذا الرجل أقل مستوى مما وصل إليه ذاك ، فإن الايمان الذي داخل قلبه لايزال يلح عليه ، ولا يزال في صراع مع نفسه الأمارة بالسوء .

أليس هذا الانسان المتردد يعادل نصف رجل من ذاك ، فإذا ما ساعده آخر مثله يستطيع أن يعمل عملًا ؟؟

وبعد أن أدرك الخليفة الحقيقة من كل جوانبها التفت إلى الشيخ يقول :

ـ حقاً إنك الرجل الذي تفاني في خدمة هذا الدين ... إنك لاتعمل لمصلحة أو منفعة ...

إنها لكلمة الحق التي لامراء فيها ... لقد كانت مواعظك

وخطبك مطابقة لعصرك وأهل عصرك « تتناول شؤونهم وما هم فيه من علل وأسقام ، تطبب قلوبهم ، وتداوي أمراضهم ، وترد على ضلالاتهم ؛ وكانت تضرب دائماً على الوتر الحساس ، وتمس قلوبهم ... وتجمع هذه المواعظ بين صولة الملوك ورقه الدعـاة ، وبين زجر الآباء ورفق الأطباء »[1] .

ومع ذلك فإن حسادك وذوي النفوس الضعيفة ، ممن أعمتهم الأهواء والأغراض الرخيصة ، عملوا على الإيقاع بك ...

ولكن رحم الله من قال :

لله در الحسد ما أعدله ... بدأ بصاحبه فقتله !!

وأمر الملك صاحب شرطته أن يحضر ذينك الرجلين ، اللذين حاولا الايقاع بالشيـخ ...

ونادى السياف الذي أعده للكيد بالشيـخ ... وأمره بقطع رقبتي هذين الدساسين ، أمام من تمنيا له الموت ، وعملا على الايقاع به بكل ما أوتيا من قوة ، فلم يتورعا عن الكذب والدس الرخيص .

إلا أن الشيـخ سارع إلى إنقاذهما من براثن الموت المحقق ...

---

(١) « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » لأبي الحسن الندوي ص ٢٦٩ .

فقذف بنفسه بينها ...

ورجا الخليفة أن يصفح عنها ...

★ ★ ★

وعاد الشيخ إلى تلامذته الذين تلقوا درساً بليغاً ، في التقيد بالأمر الإلهي :

« يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »[1] .

وأفهمهم أن هذه الآية الشريفة نزلت في حق الوليد بن عقبة ابن أبي معيط الذي أرسله رسول الله ﷺ يجبي صدقات بني المصطلق فادعى أنهم منعوه ذلك ، الأمر الذي أغضب النبي ﷺ أشد الغضب حتى همّ بغزوهم .

وعرف الجميع أن الشيطان الذي يعمل على تهديم الحق بتهديم رجاله ليس شيطان الجن فقط ، بل إن خطر شيطان الأنس أعظم وأشد .. أو لم ينزل الله عز وجل قرآناً يتلى، يدعو الناس إلى أن يستعيذوا بالله من شر شيطان الجن وشيطان الانس ؟

قال تعالى :

---

(١) « سورة الحجرات » : الآية – ٦ – .

« قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، اله الناس ، من شر الوسواس الخناس ،الذي يوسوس في صدور الناس،من الجنة والناس »[1] .

● ● ●

وعاد الشيخ إلى اخوانه ...

وعاد الإخوان إلى شيخهم ...

على أفضل ما يكون ... وعلى خير ما يرام ...

وخسىء الحاسدون والدساسون والمغرضون ..

وعرف الجميع أن لا عبرة بكثرة العدد ... بل العبرة بالمخلصين منهم ... الذين داخل الايمان أعماق قلبهم ...

« وانتفع أهل بغداد ومن أمّها من جهات بعيدة بهذه المواعظ الرقيقة المرققة ، وبهذه الخطب المجلجلة المدوية ، وتغيرت حياة ألوف من الناس »[2] !!

وأقر الجميع للشيخ بسعة العقل ... وحسن الفهم ...

فقد عرف واقعه ...

وعرف إخوانه ...

---

(١) « سورة الناس » .

(٢) « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » ص ٢٧٩ .

فلم يلق بنفسه وبهم في مواطن التهلكة ...

بل كان رائدهم دائماً إلى سبيل النجاة، شأنه في ذلك شأن ربان السفينة، الذي يعلم أنه يقود سفينته بين صخور مرجانية، وأمواج متلاطمة.

لقد «نهض في بغداد — دار السلام وقلب عالم الاسلام — رجل قوي الشخصية، قوي الايمان، قوي العلم، قوي الدعوة، قوي التأثير؛ فجدد دعوة الايمان والاسلام الحقيقي... وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه — باب العهد على ذكر الله ومراقبته — يدخل فيه المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الاسلامي، يجددون العهد والميثاق مع الله[1] ...

« وقد دخل في هذا الباب — وقد فتحه الله على يد الشيخ عبد القادر — خلق لا يحصيهم إلا الله، وصلحت أحوالهم، وحسن إسلامهم، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم، ويشرف عليهم وعلى تقدمهم، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيون يشعرون بالمسؤولية

---

(١) جرت عادة أهل الطرق الصوفية بتلاوة قوله تعالى: « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » وذلك أثناء معاهدة المريد شيخه على ذكر الله وتقواه.

بعد البيعة والتوبة وتجديد الايمان،على يد عبد مخلص وعالم رباني ، شعوراً جديداً ، وظل بينهم وبين الشيخ رباط وثيق »[1] .

رحم الله الشيخ عبد القادر الذي لايزال أتباعه في مشارق الأرض ومغاربها ...

فهو الرجل المربي الذي عمل على تربية النفوس وتفتيح مغاليق القلوب ...

وبصبره وأناته استطاع أن يخرج رجالاً كان لهم أكبر الأثر وأعظم التأثير !!

---

(١) « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » : الصفحة ـ ٢٨٢ ـ .

هل قرأت سلسلة (قصص من التاريخ)

سلسلة من القصص التاريخي تعمل على أن تنفض غبار النسيان عن تاريخنا المجيد ، ليكون ذاك التاريخ الناصع نقطة انطلاق إلى مستقبل مشرق ..

١ ـ **الدين الحق** : قصة تروي انتصار الاسلام الأعزل على التتار ذوي الجيوش الجرارة ... وذلك عندما قال بطل القصة الشيخ جمال الدين للطاغية التتري :

« نعم ... قد يكون الكلب أغلى منا ـ ثمناً ـ لو أننا لم ندن بالدين الحق » .

٢ ـ **الايمان ... والزنزانة المتجولة** قصة « كعب بن مالك » رضي الله تعالى عنه ... وهو يروي لنا الصراع العنيف الذي دار في نفسه وهو في سجنه الغريب من نوعه ... ذاك السجن الذي أودعه فيه رسول الله ﷺ مدة خمسين يوماً .

٣ ـ **أم .. لا كالأمهات** : تروي لك قصة البطولة الحقيقية في :

ـ أم .. عملت على إعداد ولدها ، فكان أستاذ الإمام مالك .

ـ أب ... جاهدخلال ٢٨ عاماً متواصلة لم يعد خلالها إلى أهله .

ـ ابن .. طلب العلم حتى صار مفتي المدينة المنورة غير منازع .

هل قرأت للمؤلف كتاب : « النحلة تسبح الله »

- الكتاب الذي تناولته بالدراسة المجلات والإذاعات العالمية
- الكتاب الذي عدته مجلة (Bee World) الانكليزية أحد المراجع العالمية ، الأكثر علميه وفنية (The more technical)
- الكتاب الذي يظهر التوافق الكبير بين العلم والدين .

الفهرست